من نبأ المرسلين

د. سليمان بن حمد العودة

دار السلام

(ح) دار المسلم للنشر والتوزيع ، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة ، سليمان بن حمد

من نبأ المرسلين: قصص تربوية للناشئة .

١٥٢ص ، ٢٤X١٧ سم

ردمك ٠-٧٩-٧٤٨-٩٩٦٠

١- قصص الأنبياء ٢- قصص الأطفال

أ- العنوان

ديوي ٥، ٢٢٩ ١٦/٠٨٤٣

رقم الإيداع: ١٦/٠٨٤٣

ردمك: ٠-٧٩-٧٤٨-٩٩٦٠

دار المسلم للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ

حقوق الطبع محفوظة

دار المسلم للنشر والتوزيع

الرياض: ١١٤٨٤ ـ ص . ب ١٧٣٥٦

هاتف: ٤٩٣١١٤٩

أولاً: نشأة البشرية وحاجتها إلى الرسل

١ ـ التعريف بنشأة البشرية وأصل التوحيد :

لاشك أن هذه الأرض التي نمشي عليها ونأكل من خيراتها ونشرب من مياهها قد خلقها الله .

وهذه السماء التي نراها بأعيننا، والمرفوعة بلا عمد ـ جلّ من سواها ـ هي أيضاً من خلق الله .

وهذه المخلوقات الكثيرة العجيبة التي نراها ولا نستطيع لها عدا من إنسان ، وحيوان، وطير، ونبات هي كذلك من خلق الله .

وكل هذه المخلوقات أدلة على وحدانية الله وقدرته وعظمته وحسن تدبره ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾ [الفرقان : جزء من آية ٢] .

لكن ماذا عن نشأة البشرية ؟ ومن هو أول البشر خلقا ، وكيف خلق ، ولماذا خلق ؟

ولكي تعرفوا هذا كله إقرأوا قوله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾ [الحجر : الآيات ٢٦ ـ ٣٥] .

وقوله تعالىٰ : ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها..﴾ [الاعراف : ١٨٩] .

وهكذا يظهر لنا من الآيات القرآنية أن آدم ـ عليه السلام ـ أصل البشرية وأولها خلقاً، فهو الإنسان الأول في هذا الوجود، وهو أبو البشر، كما ورد في صحيح البخاري (١) .

ولئن كان آدم ـ عليه السلام ـ أول من خلقه الله من البشر، فليس لدينا ما يصح نقله عن بدء تاريخ هذا الخلق، وإن كنا نعلم أن اليوم الذي خلق فيه هو يوم الجمعة، وهو نفسه اليوم الذي قبض فيه، وفيه تقوم الساعة، ولهذا فضله الله علىٰ سائر الأيام وخص بفضله أمة الإسلام ، قال ﷺ : «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فإن صلاتكم معروضة عليّ»(٢) .

ولم يكن خلق آدم عليه السلام عبثاً ولا مصادفة ـ تعالىٰ الله عن ذلك ـ وإنما لحكمة عظيمة وهي تحقيقه وذريته من بعده العبودية لله في الأرض وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إني جاعل في الأرض خليفه﴾(٣) .

وحين خلقه لهذه الحكمة شرفه وكرمه، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه،

---

(١) ورد ذلك في قصة كرب الناس وفزعهم يوم القيامة في المحشر. انظر : فتح الباري ٦/ ٣٧١.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي وحسنه المنذري وابن حجر وصححه النووي. (انظر صحيح سنن أبي داود ١/ ١٩٦ح ١٠٤٧، وصحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٧٩ ح ١٠٨٥ ومستدرك الحاكم ١/ ٢٧٨)، وللمزيد (انظر تحقيق ذلك في زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٦٥) .

(٣) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره هذه الآية أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، وليس المراد هنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط (١/ ٩٩) .

وأمر الملائكة بالسجود له ، وعلمه أسماء الأشياء، فهذه أربع تشريفات ـ كما قال الحافظ ابن كثير[١] ـ رحمه الله ـ والخامسة من هذه التشريفات: أن الله تعالى أسكنه جنته كما جاء ذلك في صحيح البخاري[٢] .

ونخلص من ذلك إلى نتيجة مهمة وهي :

أن التوحيد لله والعبودية له أصل في البشر وأن الشرك أمر طارئ وغير طبيعي فيهم وفوق ما سبق من أدلة تؤكد هذه النتيجة نسوق الأدلة التالية :

١ ـ قال الله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..** ﴾[البقرة : ٢١٣] .

نقل المفسرون عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين[٣] .

وهذا يعني أن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول الرسل بعثه الله إلى أهل الأرض[٤].

٢ ـ يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما : عن أنس بن مالك رضي الله عنه : «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ ـ يعني عن دخول النار ـ قال فيقول : نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك قد أخذت عليك في

---

(١) انظر : البداية والنهاية ١/ ٧٨ .

(٢) كتاب الأنبياء ٦/ ٣٧١ من الصحيح مع الفتح .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٤ ، وقد نقل رأياً آخر عن ابن عباس مخالفاً لهذا ولكن علق ابن كثير عليه بقوله : والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى (١/ ٣٦٥) فليتنبه لهذا .

(٤)تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٥ .

ظهر آدم أن لاتشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»[١] .

وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ [الاعراف : ١٧٢][٢] .

(١) انظر : صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٦٣ ، صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٠، ٢١٦١ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠١ .

٢ ـ بيان حاجة البشرية للرسل :

المتأمل في هذا الكون بسمائه وأرضه ، وشمسه ونجومه وزرعه وثمره ، وأحيائه وأمواته يهديه عقله إلى الخالق العظيم لكن ما هي صفات هذا الخالق؟ ولماذا خلق الخلق ؟ وما هي نهايتهم ؟ وماذا عن الجنة والنار وا لبعث والجزاء ؟ إلى غير ذلك من أمور الغيب التي لايهتدى إليها الإنسان بنفسه ، ولايمكن أن يصل إليها بمجرد عقله وتفكيره ، بل يحتاج إلى من يعلمه ما يجهله ، ويهديه بإذن الله إلى الصراط المستقيم ، وهذه مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

ولقد مرت على البشرية ـ من بعد آدم عليه السلام ـ عدة قرون[١] لم يحتاجوا فيها إلى أنبياء لأنهم كانوا على التوحيد والإسلام ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[٢] .

فلما تقادم عهدهم بالرسل والرسالات بدأت نفوسهم تضعف ، وشهواتهم تغلب ، ونسوا توحيد الله وعبوديته ، واحتكموا إلى عقولهم القاصرة فحسنت لهم القبيح ، واستهانوا بالمنكر في البداية ، وخيل إليهم أنهم يتقربون إلى الله بالطاعة وهم يعملون المعصية ، وهكذا الأمر حينما يحتكم الناس في أمر العبادة إلى مجرد عقولهم بعيداً عن هدى السماء وتوجيه الأنبياء .

ولقد نتج عن ذلك أن عمَّ الشرك الأرض ، وعبدت الأصنام والأوثان من دون الله ، فبعث الله (نوحاً) عليه السلام منذراً ومعلماً ويقص القرآن الكريم علينا قصة نوح مع قومه ، وأنه بعث ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينذرهم عن عبادة الأصنام ويخوفهم عقاب الله إن لم يمتثلوا ، يقول تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال ياقوم إني لكم نذير**

---

(١) القرن : مائة عام .

(٢) نقله ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٦٤ وقال : رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح ولم يخرجاه .

مبين أن أعبدوا الله وأتقوه وأطيعوه ﴾[نوح : الآيات١-٣] .

ونستفيد من قصة قوم نوح - عليه السلام - حاجة البشر إلى الرسل، وعجز العقل عن الإستقلال بمعرفة الحق والوصول إليه، وبيان ذلك ما ذكره المفسرون أن هذه الأوثان التي أتخذها قوم نوح آلهة من دون الله : ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسراً ، كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[١] .

ونستفيد كذلك - من قصة قوم نوح - عليه السلام - أنه لابد لعبادة الله من علم وبصيرة. وأن الجهل سبب للإنحراف حتى وإن كان الهدف خيراً ولهذا قدم الله العلم على القول والعمل كما في قوله تعالي : ﴿ فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾[٢] .

وتأمل في الأثر الذي رواه البخاري - رحمه الله - في قصة انحراف قوم نوح - عليه السلام - ، وكيف كان رفع العلم وتقادمه وقلته سبباً لعبادة الأصنام، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولاسواعاً ولايغوث ويعوق ونسراً ﴾[نوح : ٢٣] . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري - رحمه الله - حول هذه الآيات .

(٢) الآية ١٩ من سورة محمد وانظر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ١/ ٢٥ .

تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ [١] العلم عبدت[٢] .

وإذا كان هذا نموذجاً واضحاً لانحراف البشر، فإن تاريخ الإنحراف عن الصراط المستقيم قد بدأ قبل ذلك، وكانت بدايته ما وقع بين ابني آدم - عليه السلام - حين قدما قرباناً إلى الله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فحسده الآخر ولم يطق صبراً أن يراه يمشي على الأرض وقد قبل الله صدقته الطيبة، ولم يتقبل منه، فاعتدى عليه فقتله، ولم يكن المقتول بأقل من القاتل، بل كان أشد الرجلين، لكن منعه عن القتل التحرج - يعني الورع - كما نقل ذلك عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -[٣] . فلما وقع القتل سقط في يد القاتل لأنه أول قتيل في بني آدم[٤] .

ولهذا قال النبي ﷺ «لاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل»[٥] .

وعلى إثر هذه الجريمة وهذا الانحراف المشين كتب الله على بني إسرائيل أن من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .

فهل نتذكر بهذا أسباب الإنحراف في الأمم الماضية ؟ وهل ندرك حاجتنا الدائمة إلى طاعة الأنبياء عليهم السلام ؟

---

(١) أي تنوسي . انظر : الرواية في معارج القبول ١/ ٤٢٢، وفيه أن أول شركهم حينما زين لهم الشيطان تعظيم القبور والعكوف عليها .

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ودا ولاسواعاً ولايغوث ويعوق ٨/ ٦٦٧ من الفتح .

(٣) انظر : تفسير الطبري ، وابن كثير ٣/ ٧٩ .

(٤) حكاه ابن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول، ونقله عنه ابن كثير في التفسير ٣/ ٨٤ .

(٥) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي . انظر : جامع الأصول ١٠/ ٢٠٩ .

٣ ـ تعريف النبوة والرسالة والفرق بينهما :

النبىٰ والرسول كلمتان متقاربتان ولفظان محببان للنفس فهل بينهما فرق؟ وماذا تعني كل واحدة منهما ؟

لاشك أن بين الرسول والنبى فرق والدليل علىٰ ذلك عدة أمور أهمها :

١ ـ عدد كل منهما يختلف عن الآخر، فعدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون الف نبي، وعدة الرسل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً ـ كما أخبر بذلك النبي ﷺ(١) .

٢ ـ وردت كلمة الرسول وكلمة النبى في القرآن الكريم في آية واحدة معطوفة أحدهما علىٰ الأخرىٰ كما في قوله تعالىٰ ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ..** ﴾[الحج : ٥٢] . مما يدل علىٰ أن لكل واحدة منهما معنىٰ خاصاً بها ، إذ لازيادة في القرآن ولا تكرار بلا فائدة .

٣ ـ وصف الله تعالىٰ بعض رسله بالرسالة والنبوة في موضع واحد، مما يؤكد أن الرسالة أمر زائد علىٰ النبوة ، قال تعالىٰ في وصف موسىٰ عليه السلام : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً** ﴾ [مريم : ٥١]. وقال تعالىٰ في وصف إسماعيل ـ عليه السلام ـ ﴿ **واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً** ﴾ [مريم : ٥٤] .

بينما اكتفىٰ تعالىٰ في وصف بعض رسله ـ عليهم السلام ـ بالنبوة فقط ، فقال تعالىٰ في وصف اسحق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ كما جاء في قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً** ﴾ [مريم : ٤٩] .

---

(١) في حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده، وصححه ابن حبان (انظر : فتح الباري ٦/ ٣٦١)، وصححه الألباني كما في مشكاة المصابيح ٣/ ١٥٩٩ .

ولهذا علّق الحافظ ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ على وصف إسماعيل ـ عليه السلام ـ بالرسالة والنبوة كما في الآية المتقدمة بقوله: (في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحق، لأنه ـ يعني إسحق ـ إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة»[1].

التعريف والفرق الدقيق:

إذا ثبت لك الفرق بين النبي والرسول فإن التعريف المختار لكل منهما هو:

الرسول: هو من أوحى إليه بشرع جديد.

النبي: هو المبعوث لتقرير شرع من قبله[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٥

(٢) انظر: تفسير الألوسي ١٧/ ١٥٧ وتفسير الشنقيطي: أضواء البيان ٥/ ٧٣٥ وزاد أن الرسول من انزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي تثبت بها نبوته، والنبي من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة كما بينه تعالى بقوله ﴿يحكم بيها النبيون الذين أسلموا﴾ وهناك فرق شائع بين الرسول والنبي وهو أن الرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه وعلى هذا التعريف فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. انظر هذا التعريف الشائع عند الطحاوي في شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٧، والصابوني في النبوة والأنبياء ص ١٣، والفوزان في شرحه للواسطية ص ١٢ وغيرهم.

ولكن هذا الفرق غير دقيق بل وغير صحيح كما قال الشنقيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/ ٧٣٥) وهو كما قال «الأشقر» بعيد لأمور منها:

١ ـ أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي..﴾ فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ.

٢ ـ أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى والله لاينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ثم يموت هذا العلم بموته.

٣ ـ قول الرسول ﷺ «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد» رواه البخاري ومسلم، فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم (الرسل والرسلات ص ١٤، ١٥).

أول الأنبياء والرسل :

لاشك أن آدم ـ عليه السلام ـ أول الأنبياء والرسل إلىٰ أهل الأرض، فقد صحح ابن حبان حديث أبي أمامة أن رجلاً قال يارسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم قال: فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون[1] وفي حديث أبي ذر: قلت يارسول الله من أول الرسل ؟ قال : آدم ، قلت يارسول الله نبي مرسل؟ قال : نعم . . الحديث [2] .

وهذه المدة بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ كان الناس فيها علىٰ الإسلام، وكانوا أمة واحدة كما قال تعالىٰ : ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ [البقرة : ٢١٣]. يعني علىٰ شريعة من الحق فلما اختلفوا ، ولما بدأ الشرك ينتشر بينهم بعث الله نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول يبعثه إلي أهل الأرض[3] بعد أن اختلفوا وبدلوا[4]. قال تعالىٰ في تكملة الآية السابقة : ﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

ومن هنا تعلم أولوية آدم وأولوية نوح ـ عليهما السلام ـ هذا علىٰ الإطلاق، وهذا بعد الاختلاف .

---

(١) انظر : الفتح لابن حجر ٦/ ٣٧٢، وقال ابن كثير، هذا الحديث علىٰ شرط مسلم ولم يخرجه (البداية والنهاية ١/ ١٠٠) .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٠٦ . قال الهيثمي : روىٰ الطبراني في الأوسط وأحمد بنحوه ـ في حديث طويل ـ وفيه المسعودي وقد اختلط (مجمع الزوائد ٨/ ١٩٨) وانظر : د. البار في كتابه : الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم ص ٤٩ . وفي «المشكاة» من حديث أبي ذر قلت يارسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم، قلت : يارسول الله : ونبي كان؟ قال : نعم نبي مكلم . . رواه أحمد . وقال المحقق الألباني وهو صحيح . (مشكاة المصابيح ٣/ ١٥٩٩) .

(٣) كما في الحديث المتفق عليه، أنظر صحيح البخاري مع الفتح ٨/ ٣٩٥ ح٤٧١٢ ،ومسلم ١/ ١٨٥ ح١٩٤ .

(٤) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١١٠، معارج القبول للحكمي ٢/ ٩٨، ٩٩ .

الأنبياء والرسل جم غفير :

قد يخطر ببالك سؤال عن عدد الأنبياء والمرسلين، ولاغرابة فقد سأل قبلك الصحابي الجليل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ فقال : كم وفاء عدة الأنبياء ؟

فكانت الإجابة : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً(١) .

وهؤلاء الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ منهم من جاء ذكره وقص القرآن علينا خبره وهم قليل، إذ لايتجاوزون خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، والكثرة المتبقية لم يرد ذكرهم في القرآن ولم تقص على النبي ﷺ أخبارهم، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾[غافر : ٧٨] .

أسباب تعددهم :

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لايعذب أمة من الأمم حتى يبعث فيهم رسولاً يبين لهم الحق ويدعوهم إلى الخير، ويكشف لهم الباطل ويحذرهم من الفساد حتى لايكون للناس حجة بعد الرسل ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ [الإسراء : ١٥] .

ولهذا بعث الله في كل أمة رسولاً ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ [فاطر : ٢٤].

ولكثرة هذه الأمم، وتعاقب أجيالها جيلاً بعد جيل، وحاجة كل جيل إلى توجيه وكون كل نبي يبعث إلى قومة خاصة ، فضلاً عن موت الأنبياء وعدم

---

(١) الحديث رواه أحمد وهو صحيح (مشكاة المصابيح ، تحقيق الألباني ٣/ ١٥٩٩) .

خلودهم في هذه الحياة فقد كثر الأنبياء وتعدد المرسلون، حتى جاءت رسالة محمد ﷺ، فكانت للناس كافة وإلى قيام الساعة، وبه ختمت رسالات السماء، وكان ﷺ آخر المرسلين .

التوحيد أصل دعوتهم :

ومع تعدد المرسلين فقد كان لبّ دعوتهم، وجوهر رسالات السماء كلها الدعوة إلى عبادة الله وحده وتوحيده، ونبذ الشرك والوثنية، أو أيّ عبودية أخرى لغير الله، فالله تعالي هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وهو وحده المستحق للعبادة، قال تعالى ـ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إليه إلا أنا فاعبدون** ﴾ [الانبياء : ٢٥] .

ويقول تعالى بعد ذكره لقصص عدد من الأنبياء ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ [الانبياء : ٩٢] .

والمعني كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : دينكم دين واحد، والمقصود منه عبادة الله وحده لاشريك له[١] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥/ ٣٦٥، ٣٦٦.

٤ ـ خصائص الأنبياء ودعوتهم :

شاء الله وقدر أن يكون الأنبياء والمرسلون من جنس البشر، ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾ [الكهف : ١١٠] . وفي جنس الذكور دون الإناث كما قال تعالىٰ : ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم**﴾ [النحل : ٤٣، يوسف ١٠٩] .

وكان هذا من أسباب اعتراض الأمم ومن أعظم ما صدّ الناس عن الإيمان ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن قالوا ابعث الله بشراً رسولاً**﴾ [الإسراء : ٩٤] ، ثم قال تعالىٰ مبيناً الحكمة من بعث الرسل من جنس البشر ﴿**قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً**﴾ [الإسراء : ٩٥].

وقد خصهم تعالىٰ بأمور دون سائر الناس ومنها :

١ ـ وحي السماء : فمنهم من كلمة الله مباشرة أو من وراء حجاب، ومنهم من أرسل إليه ملائكة بالوحي، كما قال تعالىٰ : ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم**﴾[الشوري: ٥١] .

٢ ـ العصمة : فقد عصم الله أنبياءه من الشرك والضلال، وبرأهم من الزيغ والأهواء وهم معصومون في تحمل الرسالة فلا ينسون شيئاً مما أوحاه الله إليهم إلا شيئاً قد نسخ(١) وهم معصومون كذلك في نقل الوحي والرسالة للناس فلا يزيدون ولاينقصون، ولايكتمون شيئاً مما أوحاه الله إليهم، قال تعالىٰ : ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين**﴾[الحاقة : ٤٤ـ٤٦] .

---

(١) انظر : الأشقر : الرسل والرسالات ص ٩٧، ومحمد سرور : منهج الأنبياء في الدعوة إلي الله ص ٢١، وللمزيد انظر : عصمة الأنبياء للرازي فقد خصص كتابه لهذا الموضوع واستجمع الأدلة وناقش المخالفين .

٣ ـ تنام أعينهم دون قلوبهم : ومما اختص الله به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أن أعينهم تنام ولاتنام قلوبهم، كما قال ﷺ «إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»(١) وقال ﷺ في حديث الإسراء : «وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»(٢) .

٤ ـ التخيير عند الموت : ومن خصائصهم كذلك أنهم يخيرون عند الموت بين البقاء في الدنيا والرحيل إلى الآخرة. ففي الحديث الصحيح : «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة»(٣) .

ولكنهم ـ عليهم السلام ـ يختارون الآخرة ونعيمها على الدنيا ومتاعها، كما قال النبي ﷺ في مرضه الأخير وهو يختار الأخرة «مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» تقول عائشة رضي الله عنها : فعلمت أنه خيّر(٤) .

٥ ـ أحياء في قبورهم : واختص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بأنهم يبقون بعد موتهم أحياء في قبورهم يصلون، كما صح ذلك عن النبي ﷺ(٥) .

٦ ـ لاتأكل الأرض أجسادهم : وهذا إكرام من الله لهم، فمهما طال بهم الزمن وتقادم العهد فأجسادهم محفوظة من البلى، وفي الحديث «إن الله حرم على

---

(١) الحديث رواه ابن سعد عن عطاء مرسلاً وهو صحيح كما قال الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ٢٦٨ .

(٢) رواه البخاري، انظر : فتح الباري ٦/ ٥٧٩ .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٣١٦ للألباني، والرسل والرسالات ٩١ للأشقر .

(٤) رواه البخاري ، انظر : الفتح ٨/ ٢٥٥ .

(٥) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس، وهو صحيح، انظر : صحيح الجامع الصغير ٢/ ٤١٤، وقد وهم الأشقر حيث نسبه للجماعة : الرسل والرسالات ص ٩٣ .

الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[١] .

٧ - **يقبرون حيث يموتون** : فلا يقبر نبي إلا في الموضع الذي مات فيه، ففي الحديث الصحيح «لم يقبر نبي إلا حيث يموت»[٢] . ولهذا فإن الصحابة رضوان الله عليهم دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة - رضي الله عنها - حيث قبضت روحه فيها .

هذه أبرز الخصائص التي تميزهم عن غيرهم، وينبغي أن يعلم أن الأنبياء - عليهم السلام - أكمل البشر خلقاً فهم أسلم الناس في هيأتهم وشكلهم، مبرؤون من كل عيب خلقي، وإن كان يصيبهم ما يصيب غيرهم من الأمراض والأسقام.

وهم أشرف الناس نسباً ، وهذا محمد ﷺ - وهو أخرهم - يتحدث عن شرف نسبه ومن سبقه من أبائه المرسلين فيقول : «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت في القرن الذي كنت فيه»[٣] .

وهم ذكور أحرار ، فلم يكن في الأنبياء - عليهم السلام - إمرأة، كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ﴾ [الأنبياء : ٧] ولم يكن فيهم كذلك عبد أو رقيق .

وفوق ذلك كله فهم أحسن الناس خُلقاً، وأطهرهم قلوباً، وأكثرهم صبراً، وما بالهم لايكونون كذلك وقد أدبهم ربهم فأحسن أدبهم، ورعاهم فأحسن رعايتهم وتولاهم وحفظهم .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره كما في الفتح ٦/ ٤٨٨ .

(٢) رواه أحمد في مسنده بإسناد صحيح، انظر : صحيح الجامع الصغير ٥/ ٤٦، الرسل والرسالات ٩١ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه . انظر : الفتح ٦/ ٥٦٦ .

دعوة الأنبياء :

وكما تميزت شخصيات الأنبياء عليهم السلام عن غيرهم، فقد تميزت دعوتهم بعدة أمور منها :

١ ـ أن دعوتهم ربانية، فهي ليست رغبة ذاتية نابعة من ذكائهم، أو بسبب تألمهم لواقعهم، بل هي تكليف إلهي ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ﴿ **ياأيها المدثر قم فأنذر** ﴾ [المدثر، الآية ١، ٢] .

٢ ـ أساس دعوتهم إخلاص العبادة لله وحده، ونبذ الشرك والوثنية وتعريف الناس بخالقهم ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون** ﴾[الأنبياء : ٢٥] .

٣ ـ والإيمان بالغيب سمة بارزة في دعوة الأنبياء عليهم السلام، والغيب كل ما غاب عن الإنسان، ولم يستطع عقله إدراكه وتصوره إلا بوحي من الله، كالإيمان بالله وصفاته والإيمان بالملائكة واليوم الآخر ، والجنة والنار ونحو ذلك(١) .

٤ ـ الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة، وعدم طلب أجر مقابل دعوتهم ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[الشعراء : ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤] .

---

(١) انظر : النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للندوي ص ٦٣، ٧١ .

٥ ـ العبر المستفادة من قصص الأنبياء :

لايقصد من وراء سرد قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مجرد التسلي بقصصهم، أو التلذذ في معرفة أخبارهم فحسب، بل هناك عبر ودروس يستفيد منها الدارس لسيرهم والمطلع على أخبارهم ومنها :

١ ـ أن في قصصهم عبرة لأصحاب العقول فقد نصرهم الله وجعل العاقبة لهم مع ضعف قوتهم المادية وقلة أتباعهم، وأخذ أقوامهم المعاندين أخذ عزيز مقتدر مع كثرتهم وجبروتهم ولم تمنعهم قوتهم .

٢ ـ وفي قصصهم تسلية للنبي ﷺ حيث يأنس بأخبارهم وموقف أقوامهم معهم، حين يشتد أذى قومه له ويرفضون دعوته ويستهزئون به .

٣ ـ ومن قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يستفيد الدعاة والمصلحون معرفة أساليب الدعوة وطرقها، ويعلمون مناهجها وأحكامها .

٤ ـ كما يستفيد المسلمون كلهم من قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الصبر على الشدائد والبلوى والشكر في حال الرخاء واليسر والسراء .

٥ ـ ولاشك أن قصص الأنبياء تزيد من إيمان المؤمنين، وتزيل الشبه والشكوك عند المرتابين والمترددين، وتكشف الحقيقة للجهلة الغافلين .

٦ ـ وفي سرد قصصهم وأخبارهم تأكيد على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عنهم ولم يشهد أزمانهم، وبينه وبينهم آلاف السنين، ولم يقرأ في الكتب أخبارهم وهو النبي الأمي الذي لايقرأ ولايكتب، وتأمل في تعقيب الله تعالى على قصة موسى ـ عليه السلام ـ حيث قال لنبيه محمد ﷺ ﴿ **وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين** ﴾ [القصص : ٤٤، ٤٥] .

ثم تأمل كذلك تعقيب الله تعالىٰ على قصة أم عيسىٰ ـ عليه السلام ـ إذ قال لنبيه ﷺ ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصتون** ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

وقال تعالىٰ معقباً علىٰ قصة نوح عليه السلام : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ [هود ٤٩] .

٧ ـ كما أن في قصص الأنبياء معرفة شرائع الله المنزلة علىٰ رسله ، والكتب السماوية الموحىٰ بها إلىٰ أنبيائه ورسله عليهم السلام، مع الأخذ بعين الاعتبار أن شريعة الإسلام هي أتمها وأكملها ، وأن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم .

٨ ـ ومن الدروس المستفادة من قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ العلم بأن الإسلام هو الدين الحق الذي دعىٰ إليه الرسل جميعاً ، فنوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ [يونس : ٧٢] وإبراهيم ـ عليه السلام ـ حين قال له ربه أسلم : ﴿ **قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ البقرة : الآية ١٣١] ويوصي إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أبناءهم بالإسلام ويقولون : ﴿ **فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[البقرة : ١٣٢] وموسىٰ عليه السلام يقول لقومه ﴿ **ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [يونس : ٨٤] والحواريون يقولون لعيسىٰ عليه السلام ﴿ **أمنا واشهد بأنا مسلمون** ﴾[آل عمران : ٥٢] قال الله تعالىٰ : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[آل عمران : ١٩] وقال : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الأخرة من الخاسرين** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

٦ ـ مصادر تاريخ الأنبياء :

لابد لمن يريد أن يقرأ تأريخ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ويعرف الصحيح من أخبارهم أن يعتمد أول ما يعتمد على القرآن الكريم، فهو أصدق مصدر لتأريخ النبوة والأنبياء، فهو من عند الله وهو الذي يعلم أخبار هؤلاء المرسلين، وهو الكتاب الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والقرآن الكريم هو السبيل السوىٰ والطريق الأقوم إلىٰ معرفة أولئك الصفوة من خلق الله، وقد قصَّ الله فيه من نبأ أولئك المرسلين ما أبان عن جليل قدرهم وسامي مكانتهم، وشريف مواقفهم في الذب عن دين الله الحق، والصبر علىٰ ما لقوا من قومهم من أذىٰ لايصبر عليه ولا يطيقه إلا أولئك المرسلون الصادقون[١] .

بل ربما كان القرآن الكريم هو المصدر الوحيد لقصص وأخبار بعض الأنبياء أمثال هود وصالح ـ عليهما السلام ـ وأهل التوراة يزعمون أن لاذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة[٢] ويبدو أن السبب في ذلك أن هاتين الأمتين (عاد وثمود) من العرب ولذلك لم يضبط أهل الكتاب خبرهما جيداً ولم يعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما مشهوراً في زمان موسىٰ عليه السلام[٣] .

وإذا كان هذا في شأن (التوراة) فالأمر بالنسبة (للإنجيل) أعجب فالنصاري لم يعرفوا بعض أخبار عيسىٰ ـ عليه السلام ـ إلا من (القرآن الكريم) .

وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة (المائدة) ليست مذكورة في الإنجيل، ولايعرفها النصاري إلا من المسلمين[٤] .

---

(١) انظر : عصمة الأنبياء للرازي ص ٢٦ .

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٢٣٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٤٤، وانظر تفسير الآية ٩ من سورة إبراهيم في تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٠ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩

وترد أخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في عدد من سور القرآن الكريم، ويكثر ذكرهم وتفصيل أخبارهم وقصصهم مع أقوامهم في سور معينة أمثال سورة الأعراف، والحجر، ومريم، وطه، والمؤمنون، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، وسبأ، والصافات، وص، وغافر، وفصلت، والأحقاف، والذاريات ، والقمر .

وهناك سور جاءت تسميتها باسم الأنبياء عموماً كما في سورة (الأنبياء) أو باسم أحد منهم أمثال سورة «هود» ، «يونس» ، «يوسف» ، «إبراهيم» ، «نوح» وإن كان بعضها بتعرض لقصص أنبياء أخرين .

وما من شك أن قصص الأنبياء في القرآن الكريم أحسن القصص كما قال تعالىٰ ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ [يوسف : ٢] .

وقصص القرآن هو القصص الحق، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق** ﴾ [آل عمران : ٦٢] .

والقصص في القرآن الكريم هو الفيصل عند الأختلاف ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾[النمل : ٧٦].

وتأتي كتب التفسير الموثقة مصدراً مكملاً للقرآن حيث تفسر المجمل، وتوضح المبهم، وتفصل ما ورد بعمومه في كتاب الله دون تفصيل .

ومن أبرز هذه الكتب : تفسير ابن جرير ، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير ـ عليهم رحمه الله، ويلاحظ أن في هذه التفاسير بعض الروايات الإسرائيلية التي ينبغي التنبه لها .

كما أن كتب الحديث تعتبر كذلك مصدراً مهماً في تاريخ الأنبياء، ففيها مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي أخبر النبي ﷺ فيها عن بعض صفات الأنبياء وجهادهم وصبرهم علىٰ قومهم، والرسول ﷺ لاينطق عن الهوىٰ،

ومن أبرز هذه الكتب: صحيح البخاري، صحيح مسلم، مسند الإمام أحمد، سنن الترمذي، سنن ابن ماجه، سنن أبي داود، ونحوها من كتب السنة وتتوزع أخبار الأنبياء في هذه الكتب على عدد من الأبواب والكتب، وفي بعضها كتب مخصوصة بالأنبياء، أو بالفضائل والمناقب وهي أكثر تفصيلاً وشمولاً من غيرها.

كما تعتبر كتب التاريخ العامة هي الأخرى مصدراً مهماً لتاريخ الأنبياء وميزتها أنها أكثر بسطا وتوضيحاً لأخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأكثر تفصيلاً لقصصهم مع أنبيائهم، لكنها تجمع الأخبار كلها من مصادر شتى فتحتاج إلى فحص وتدقيق لمعرفة الروايات الصحيحة من الروايات الضعيفة، ومن أمثلة هذا النوع من المصادر تأريخ الطبري (الأمم والملوك)، وتاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) وهذا الأخير أكثر انتقاءً للروايات من غيره، ولمؤلفه منهج في التعامل مع الإسرائيليات ذكره في مقدمة كتابه [1] كما أن له وقفات وتعليقات مفيدة.

(١) انظر: البداية والنهاية ١/ ٧.

ثانياً : نماذج من الأنبياء والرسل - بعد آدم - عليهم السلام

١ - نوح عليه السلام

١ - نسبة وموطنه وقومه :

وهو ابن لَمْك - بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف - ابن متوه شلخ بن خنوخ - وهو إدريس فيما يقال[١] فإدريس عليه السلام جده، أو جد أبيه[٢] .

وهو أول الرسل إلى أهل الأرض - كما في حديث الشفاعة يوم القيامة[٣] .

وفي القرآن الكريم يؤكد الله لنبيه محمد ﷺ بعثة الأنبياء بعد نوح عليهم السلام فيقول : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[النساء: ١٦٣].

ومن أولى العزم[٤] من الرسل الذي خصهم الله بالذكر في قوله تعالى :

---

(١) هكذا ضبط نسبه ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري ٦/ ٣٧٢ . وانظر في نسبه كذلك ابن كثير في البداية والنهاية، وقد زاد في نسبة إلى أن وصله بأبيه آدم عليه السلام ١/ ١١٠ .

(٢) ذكر ذلك البخاري - رحمه الله - في باب ذكر إدريس عليه السلام . انظر : صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٧٤ .

(٣) حديث الشفاعة ثابت في الصحيحين . انظر : صحيح البخاري ٦/ ٣٧١ من الفتح .

(٤) أولوا العزم هم أولو الصبر والتحمل كما قال تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ ومعلوم أن هؤلاء الخمسة صبروا في سبيل الدعوة والجهاد أكثر من غيرهم .

﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ، ومن نوح ، وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾[الأحزاب : ٧] .

وقد كان عبداً شكوراً كما قال الله تعالىٰ : ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾[الإسراء: ٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ الشكور : هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ، وقد قيل إن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان يحمد الله علىٰ طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله(١) .

وقد نشأ نوح ـ عليه السلام ـ في بلاد العراق(٢) وكان مستقر السفينة التي صنعها ـ بعد هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ـ في الجودي ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وقضي الأمر واستوت على الجودي ﴾[هود : ٤٤] .

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ الجودي : جبل بالجزيرة(٣) وهي جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من (دجلة) من أعمال (الموصل)(٤) .

أما قوم نوح ـ عليه السلام ـ فيقال لهم : بنو راسب(٥) .

ولئن كان نوح ـ عليه السلام ـ في منتهىٰ العبودية وا لطاعة والشكر لله ، فقد كان قومه في منتهىٰ الضلالة والفساد والطغيان ، ولهذا قال الله عنهم في سورة الذاريات ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[الذاريات : ٤٥]

وقال في سورة النجم عنهم : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغي ﴾ [النجم : ٥٢].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ـ تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد ١/ ١١٥ ، ١١٦ .
(٢) محمد النجار : تاريخ الأنبياء ص ٦٥ .
(٣) نقله البخاري في صحيحه عن عكرمة (الصحيح مع الفتح ٦/ ٣٧٠) .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٣/ ١٦٢ .
(٥) ذكره ابن جرير وغيره (ابن كثير ١/ ٧٥ من القصص) الفقي : قصص الأنبياء ص ٣٥ .

ويخبرنا القرآن أنهم كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ﴿ **وقالوا لاتذرن إلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ..** ﴾ [نوح: ٢٣] .

وحين دعاهم نوح ـ عليه السلام ـ إلى عبودية الله وحده اتهموه بالجنون ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[المؤمنون : ٢٥] .

ثم رموه ومن آمن معه بالكذب كما في قوله تعالى : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾[هود : ٢٧] . وبالضلال كما قال تعالي : ﴿ **قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾ [الأعراف : ٦٠] . بل وصل بهم الأمر إلى تهديده بالرجم ﴿ **قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** ﴾ [الشعراء : ١١٦] .

أهكذا يصنع بالأنبياء ؟ أم هكذا يكون جزاء الدعوة والدعاة ؟ ألا بعداً للقوم الظالمين !!

٢ ـ دعوة نوح ـ عليه السلام وأسلوبه في دعوته :

لما كانت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لأهل شرك ووثنية فقد كان أساسها الدعوة إلى توحيد الله جل شأنه وإفراده بالعبودية وحده لاشريك له . قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [المؤمنون: ٢٣] . ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال ياقوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه** ﴾ [نوح : ١, ٢, ٣] .

وينبغي أن تعلم أن الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به منهج وطريقة الأنبياء كلهم، قال تعالى موضحاً ذلك ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون** ﴾[الأنبياء: ٢٥] .

وفي دعوة نوح ـ عليه السلام ـ يظهر «الإخلاص» لله، والرغبة في ثوابه

وحده فهو لم يطلب من قومه أجراً مقابل دعوته ﴿ **وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله** ﴾[هود : ٢٩] .

ونوح ـ عليه السلام ـ مع إخلاصه يُذكِّر قومه بصدقه وأمانته وعليهم ألا يكذبوه ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين** ﴾ [الشعراء : ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧] .

ومن مظاهر صدق نوح ألا يحدثهم بما لايعلمه إلا الله كأمور الغيب، وليس عنده من خزائن الله ما يستطيع أن يعد به المؤمنين معه، ولم يدَّع أنه ملك كريم، بل هو بشر أكرمه الله بالرسالة .

ويظهر «نوح» عليه السلام لقومه «النصح والرغبة لهم في الخير» حيث يعلم مالايعلمون، ولم يكن قصده «التشهير والفضيحة» ﴿ **وأنصح لكم واعلم من الله ما لاتعلمون** ﴾ [الأعراف : ٦٢] .

وقال تعالىٰ ـ علىٰ لسان نوح عليه السلام ـ ﴿ **ولاينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ [هود : ٣٤] .

أسلوب نوح في الدعوة :

ويتبع في دعوته مع قومه أسلوب «الترغيب» تارة، و«التخويف» تارة أخرىٰ، اسمع إليه وهو يرغبهم في الخير ويقول : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾[نوح : ١٠ـ١٢] .

ثم اسمع إليه وهو يخوفهم عذاب الله وأليم عقابه حين يقول الله عنه ﴿ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[الأعراف : الآية ٥٩] .

وفي سورة «هود» ﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾[هود : ٢٦] .

ثم يسلك نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه طريقة «الحوار والمناقشة» الهادئة لعلهم يتذكرون عظمة الخالق حينما يتفكرون في مخلوقاته ﴿ألم ترو كيف خلق الله سبع سموات طباقاً. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً. والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ [نوح : ١٥ـ٢٠].

ومع ذلك كله فلا يخفىٰ ما في دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه من الصبر وتحمل الأذىٰ والاستهزاء وكل ذلك في سبيل الدعوة إلىٰ الله، لاليوم أو يومين أو عام أو عامين، بل لمدة ألف سنة إلا خمسين عاماً. كما قال تعالىٰ ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ [العنكبوت : ١٤].

لم يمل نوح ـ عليه السلام ـ خلال هذه المدة الطويلة أو ييأس، بل كان يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً وجهراً، ولكن قومه لم تزدهم الأيام إلا فراراً، وبلغ من سوئهم وجهلهم وعنادهم أن يسدوا آذانهم عن سماع الحق، ويضعوا ثيابهم علىٰ رؤوسهم متنكرين له حتىٰ لايعرفهم[1]، أو يغطوها حتىٰ لايسمعوا ما يقول[1].

كل ذلك تجده في قول الحق تبارك وتعالىٰ ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً..﴾[نوح : ٥، ٦، ٧، ٨، ٩]

---

(١)هذا تفسير ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لقوله تعالىٰ ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ . انظر : تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٩.

(٢) وهذا تفسير سعيد بن جبير والسدي للآية، كما نقله ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢٥٩ .

وبعد ذلك كله أليس يعجبك ويلفت نظرك هذا الصبر الجميل من نوح ـ عليه السلام ـ على قومه، وهو نموذج لصبر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم ألست معى أن هؤلاء يمثلون الجهل والحماقة والسفاهة بكل معانيها ؟!

٣ ـ موقف قومه وإصرارهم على الكفر :

ماذا يتوقع الإنسان من النتائج بعد هذه الجهود الكبيرة والصبر الطويل ؟ أليس المتوقع أن يدخلوا كلهم في دين الله أفواجاً ؟ وأن تشمل الهداية كبيرهم وصغيرهم وذكرهم وأنثاهم؟ بلى وربي فالدعوة إلى حق، وا لداعي نبى محق.

لكن الأمر كان بخلاف ذلك، فخلال المدة الطويلة التي مكثها نوح ـ عليه السلام ـ يدعوهم إلى الله كان موقف الأستكبار، والاستهزاء، والإعراض هو الظاهر عليهم .

الفئة المؤمنة :

وكانت النتيجة إيمان فئة قليلة منهم بالله ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ [هود : ٤٠]. قيل كانوا ثمانين وقيل أقل من ذلك[١] . لكن هذه الفئة تستحق الذكر ، فهم عقلاء القوم ، وهم أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

سوء التربية :

وبلغ بهم السوء أن الأجداد كانوا يوصون الأحفاد بعدم الإيمان بنوح ـ عليه السلام ـ ومحاربته، فكان ينشأ الأبناء على كره نوح وعدم السماع منه، ويذكر أن الوالد كان إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح

---

(١) انظر : تاريخ الطبري ١/ ١٨٧ ، ١٨٨ ، قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٠٠ .

أبدا ما عاش ودائماً ما بقىٰ [١] !! ألا بئست التربية وساءت الوصية .

النبوة أو الملك :

لقد استغرب قوم نوح ـ عليه السلام ـ أن يبعث إليهم رجل مثلهم لايمتاز عليهم بمال أو ملك ، وجهلوا أن ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ ونسوا أن هناك فرقاً بين النبوة والملك ، فالأولىٰ اختيار وتكليف من الله لعبد من عباده لدعوة الناس إلىٰ الخير . وتعريفهم بالخالق ، وتحذيرهم من الشر وطرقه ، والنبوة لايعطيها الله إلا لمن أحب والأنبياء هم خيار الناس ، أما الملك فيعطيه الله من أحب ومن لم يحب ، وقد يكون الملك مؤمناً صالحاً أو فاسقاً أو كافراً .

بين الأغنياء والضعفاء :

وأنفوا واستكبروا أن يكون أتباع نوح ـ عليه السلام ـ والمؤمنون به من الفقراء ، واسمع إلىٰ مقولتهم الحمقىٰ ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي** ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **ولاأقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين** ﴾ [هود : ٢٧ـ٣١] .

ولو علم هؤلاء أن ﴿ **فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ وأن الله يهدىٰ من يريد لما قالوا ما قالوا .

من أحق بالجنون والرجم ؟

ومن إصرار قوم نوح ـ عليه السلام ـ علىٰ الكفر فقد اتهموا (نوحا) بالجنون وكانوا ينتظرون نهايته ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[المؤمنون : ٢٥].

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ١/ ٩٢ .

وهددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوتهم ﴿قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين﴾[الشعراء : ١١٦] .

فضيحة الكذب يوم الدين !

ولئن كان قوم نوح قد اتهموه ومن آمن معه في الحياة الدنيا بالكذب فقالوا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ فالأدهي من ذلك والأمر أن عنادهم وتكذيبهم لنوح يستمر إلي يوم القيامة . حتىٰ تفضحهم أمة محمد ﷺ علىٰ روؤس الخلائق، فقد روىٰ البخاري في صحيحه أن النبىٰ ﷺ قال : «يجيئ نوح وأمته فيقول الله تعالىٰ : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم أي ربّ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد ﷺ وأمته، فتشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جلّ ذكره ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾[1] فهل رأيت مثل هذه الفضيحة ؟

٤ ـ نتيجة الكفر والتكذيب (الطوفان) :

وأمام هذا الطغيان الفاجر، والكذب السافر، والمكر الكبار من قوم نوح ـ عليه السلام ـ كان لابد لنوح أن يلجأ إلىٰ الله ـ ونعم الملجأ إذا ضاقت السبل وانقطعت الحيل ـ ليجعل له من ذلك الضيق مخرجاً ، فتوجه إلىٰ الله بقلب خاشع قائلاً : ﴿قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾[الشعراء : ١١٧] .

الدعاء بعد اليأس :

ولما طال ليل الظالم وأيس نوح ـ عليه السلام ـ منهم، بعد فعله لكل الأسباب

---

(١) انظر : الصحيح مع الفتح ٦/ ٣٧١، والآية جزء من آية ١٤٣ من سورة البقرة .

لنجاتهم وأوحى الله إليه ﴿ **أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتأس بما كانوا يفعلون** ﴾[هود : ٣٦] .

حينئذ استجاز الدعاء عليهم بقوله : ﴿ **رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنكم إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً** ﴾ [نوح : الآية ٢٦ ، ٢٧] .

السفينة والإستهزاء :

ثم أمره الله بصنع السفينة ﴿ **فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ [المؤمنون : ٢٧] .

ويكمل نوح - عليه السلام - صنع السفينة بأمر ربه على الرغم من استهزاء المشركين به ، فلا يزيده ذلك إلا إيماناً وثباتاً ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾[هود : ٣٨] .

وهل علمت أن هذه السفينة أول سفينة تصنع ؟

كيف وقعت المعجزة (١) ؟

وجهل قوم نوح قدرة الله على كل شيء، فكيف وقعت المعجزة ؟

لقد أمر الله أبواب السماء فانهمرت امطاراً، وأمر الأرض فتفجرت عيوناً، فالتقى ماء السماء وماء الأرض بقدرة الله ﴿**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً فلتقى الماء على أمر قد قدر**﴾ [القمر : ١١، ١٢] . حتى قال جماعة من المفسرين : إن الماء ارتفع على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر، وقيل ثمانين ذراعاً، فلم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير (٢) .

المشهد الأخير :

ثم أمر الله نوحاً ـ عليه السلام ـ أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وغيرها مما فيه روح، حتى لاتنتهى الحياة بعد الغرق، وأن يحمل أهله ـ إلا من سبقت عليه الشقاوة منهم ـ والمؤمنين معه، وجعل علامة ذلك إذا فارت ينابيع الأرض ماءً، وفار (التنور) الذي يوقد فيه، فلما وقع ذلك ركب نوح ومن معه السفينة بعد أن عم الطوفان الأرض كلها فكانت تسير بهم في موج عظيم كالجبال، وكانت سبباً لنجاتهم بإذن الله، أما غيرهم من الكفرة والمستهزئين فأدركهم الغرق، وكانوا عبرة للمعتبرين، وهكذا يكون مصير الظالمين في الدنيا، ولعذاب الأخرة أشد وأبقى وكذلك تغرق الخطايا أهلها وصدق الله العظيم : ﴿**مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً**﴾ [نوح : ٢٥] .

---

(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما : «لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، وإنما مياه البحار بقية الطوفان» انظر تفسير ابن الجوزي : زاد المسير ٤/ ١٠٣ .
فإن صح هذا القول فهو وجه في الإعجاز، وإن لم يصح فالمعجزة متحققة في صنع السفينة لأول مرة ونجاة من عليها من المؤمنين وغرق من سواهم من الكافرين .

(٢) انظر قصص النبيين لابن كثير ١/ ١٠٢ .

٥ ـ الدروس المستفادة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه :

لاشك أن في قصة نوح عليه السلام مع قومه عدداً من الدروس والعبر ومن أهمها :

أ ـ أن النصر مع الصبر، وأن الفرج من الكرب، وأن الغلبة في النهاية للحق وأهله، حتى وإن طال الزمن، وتمادى الكفرة وكثر المستهزئون .

ب ـ كان في السفينة التي صنعها نوح ـ عليه السلام ـ بتوجيه الله ـ عبرة للمعتبرين . قال تعالى : ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكر** ﴾[القمر : ١٥] . قال قتادة رحمه الله : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة ـ يعني أمة محمد ﷺ ـ ثم علق ابن كثير ـ رحمه الله ـ بقوله : والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن كما قال تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ (١) خاصة وأن هذه السفينة ليس لها مثال سابق .

ج ـ ونستفيد من قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه الكافر، وهو يقول لربه ﴿ **رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق** ﴾[هود : ٤٥] أن رابطة العقيدة وأخوة الإسلام هي الرابطة الحقيقة، أما رابطة النسب والقرابة وحدهما فلا تنجيان من عذاب الله حتى وإن كان ابن نبي مرسل ؟ قال تعالى مجيباً لنوحٍ ومبيناً لغيره ﴿ **يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ [هود : ٤٦] .

د ـ أن الإيمان والتقى فضل من الله يؤتيه من أحب، وأنه لايحصل بالمال أو الملك أو الجاه وحدها، ولايمنع بسبب الفقر والضعف والمسكنة، (فالملأ) من قوم نوح لم يمنعهم مالهم ووجاهتهم من عذاب الله ، في حين أنجى الله الذين كان يقال عنهم (أراذلنا) وذلك بسبب إيمانهم وصدقهم مع الله ورسله .

---

(١) الآية ٤١/ ٤٢ من سورة يس، وانظر : تفسير ابن كثير عند آية القمر ج ٧/ ٤٥٢ .

هـ ـ وهناك درس في قوة العزيمة والحاجة إلى الصبر في أمور العبادة والدعوة إلى الله ونوح ـ عليه السلام ـ مثال رائع للصبر والعزيمة وعدم اليأس، وقد علمت أنه أمضي ألف سنة إلا خمسين عاماً في الصبر والجهاد والدعوة في سبيل الله، وما مل أو يئس حتى أوحى الله إليه ﴿ **أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾[هود : ٣٦] .

٢ - هود عليه السلام

هو هود بن عبد الله بن رباح بن جاورد بن عابر بن عوض بن أرم بن سام بن نوح، هذا هو الراجح في نسبه[١] .

ينتمي إلى قبيلة (عاد) العربية، فهو أحد الأنبياء الأربعة من العرب كما قال النبي ﷺ لأبي ذر - رضي الله عنه - في حديث الأنبياء الطويل : «. . . منهم أربعة من العرب : هود، وصالح، وشعيب، ونبيك ياأبا ذر»[٢] .

١ - قوم هود قبل البعثة :

وقوم هود - عليه السلام - هم عاد، كما قال تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾[هود : ٥٠] وسماه أخاهم لكونه من قبيلتهم لا من جهة أخوة الدين[٣] . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ **فأرسلنا فيهم رسولاً منهم** ﴾[المؤمنون: ٣٢] . وهي قبيلة أو عدة قبائل عربية كانت تسكن (الأحقاف) كما بين ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾ [الأحقاف : ٢١] .

والأحقاف هي جبال الرمل أو المعوج من الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضر موت، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر[١] .

وكانوا كثيراً ما يسكنون (الخيام) ذات الأعمدة الكبيرة، كما في قوله تعالى :

---

(١) نقله ابن جرير الطبري في التاريخ ١/ ١٢٦ ، ورجحه ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٧٧ .
(٢) صحيح ابن حبان نقله ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ١٣١ .
(٣) الفتح ٦/ ٣٧٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٦٨ ، ابن حجر - الفتح ٦/ ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾[الفجر : ٦، ٧] . ويتميزون بالقوة وكبر الأجساد، وإلى هذا يشير الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[الفجر : ٨] وقوله : ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ [الأعراف: ٦٩] ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾[هود : ٥٢] . وكان هذا محل فخرهم واعتزازهم ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾[فصلت : ١٥] .

وكانت ديارهم من أخصب البلاد وأكثرها جناناً وأنعاماً كما قال لهم هود - عليه السلام : ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون﴾ [الشعراء : ٣٣، ١٣٤] وكذلك كانوا مترفين - وهي الزيادة في النعيم ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾[المؤمنون : ٣٣] . وبلغ بهم الترف والبذخ إلى كثرة تشييد القصور الفارهة في أعالي الجبال دونما حاجة إلى سكناها لأن أكثر سكناهم في الخيام كما مر، ولهذا نصحهم نبيهم هود - عليه السلام - فقال ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء : ١٢٨-١٣١] .

وعاد جاءوا بعد قوم نوح - عليه السلام - فخلفوهم لكنهم لم يكونوا عنهم ببعيد من حيث الكفر والطغيان، فهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان[١] ، وتأمل في محاورة هود - عليه السلام - لهم في قوله تعالى : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون، قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [الأعراف : ٦٩، ٧٠] .

ويذكر أنه كانت لهم أصنام ثلاثة : صدا، وحمودا، وهرا. وكانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام[١] ، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٢١، ١٢٦ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٣٢

يدعوهم إلى الله وإلي إفراده بالعبادة والإخلاص له .

٢ ـ دعوة هود عليه السلام :

حين أرسل الله هوداً ـ عليه السلام ـ إلى هؤلاء القوم الكفرة، عبَّاد الأصنام والأوثان، كان أول ما دعاهم إليه إخلاص العبادة لله وحده والبعد عن عبادة الأصنام، ونصحهم عن الألهة المزعومة فقال لهم : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[الأعراف : ٦٥] [هود : الآية : ٥٠] .

وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية سلك معهم طريقاً واضحاً، ودعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة فهو في البداية يلفت أنظارهم إلي عاقبة الكفر ومصير الظالمين قبلهم، فهم خلفاء قوم نوح الذين أخذهم الله ـ لكفرهم وعنادهم ـ أخذ عزيز مقتدر، وعليهم هم أن يأخذوا العبرة ويصلحوا أحوالهم، ثم يذكرهم بنعم الله وآلائه عليهم فالله قد زادهم في الخلق وأعطاهم قوة لم يعطها أحداً غيرهم، وأسكنهم أرضاً طيبة تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع والثمر .

وهو حين يذكرهم بفضل الله عليهم، وأن الله وحده هو المستحق للعبادة والطاعة يقول لهم : أما آلهتكم المزعومة فهي لاتنفع ولاتضر، ولا تعطى ولا تمنع، وما أنزل الله بها من حجة أو برهان . استمع إلى ذلك كله في بعض أيات سورة الأعراف ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان** ﴾[الأعراف : ٦٥ ـ ٧١] .

وعلى الرغم من عنادهم وإيذائهم لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ فهو لايقف عند هذا الحد في دعوتهم إلى الخير، بل يطلب منهم أن يلجأوا إلى الله فيستغفروه

فيتوبوا إليه فذلك سبب لكثرة الخيرات ودفع العقوبات ﴿ **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** ﴾[هود: ٥٢] .

وهود ـ عليه السلام ـ شأنه شأن الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين لا يطلبون أجراً على دعوتهم بل هو راغب في الخير لهم، مشفق عليهم من عذاب الله وأليم عقابه، واقرأ بتدبر وتمعن صدق وإخلاص هود ـ عليه السلام ـ في دعوة قومه، وخوفه عليهم، في سور الشعراء ﴿ **إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ إلى أن يقول لهم : ﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[الشعراء : ١٢٤ ـ ١٣٥] .

ولا شك أن أجر الدعاة على الله سواء استجاب لهم قومهم أم لم يستجيبوا إذا نصحوا وصدقوا وأخلصوا .

وهو مع ذلك كله لا يقابل سفههم بسفه مثله فحينما قالوا له : ﴿ **إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ استمر في نصحهم ووعظهم وتذكيرهم بالله ﴿ **يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين** ﴾[الأعراف : ٦٦ـ٦٨] .

ألا إنها أخلاق الأنبياء ودعوة الحكماء لكن (عاداً) قوم عادون ؟!

٣ ـ موقف قومه ونتيجة ذلك :

ماذا كانت نتيجة دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه، هل استفادوا من قوتهم في طاعة الله ؟ وهل استعانوا بخيرات بلادهم على ذكر الله وشكره؟ وهل استخدموا عقولهم في التفكر في عاقبة من مضى قبلهم ؟ الواقع أن شيئاً من ذلك لم يكن، فقد قابلوا هوداً عليه السلام، بالجحود والإنكار، واتهموه بالكذب

والسفه والجنون، فقد قالوا له : ﴿ **ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريئ مما تشركون** ﴾[هود : ٥٣، ٥٤]. أي إنما أصابك هذا لأن بعض الألهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها[١] .

وحين ذكرهم البعث والحساب وخوفهم الجزاء والعقاب في الآخرة أنكروا ذلك كله قائلين ﴿ **إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. ونسوا بذلك أن الذي خلقهم وأحياهم أول مرة هو الذي أماتهم وسوف يحييهم مرة أخرىٰ للبعث والجزاء .

وحينما بلغ عنادهم نهايته، ووصل كبرهم وإعراضهم غايته وقالوا : ﴿ **من أشد منا قوة** ﴾ وقالوا لهود عليه السلام ﴿ **إئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ دعا هود ربه بالنصر عليهم ﴿ **قال رب انصرني بما كذبون** ﴾ فاستجاب الله دعوته قال: ﴿ **عما قليل ليصبحن نادمين** ﴾[المؤمنون : ٤٠] .

فكيف كانت نهايتهم، وما نوع عقوبة الله لهم ؟

لقد كانت نهايتهم أليمة وعقوبتهم شديدة، وهم يستحقون ذلك لأنهم قالوا مستكبرين : ﴿ **من أشد منا قوة** ﴾ ؟ وجهلوا أن الذي خلقهم وأعطاهم القوة أشد منهم قوة، ولهذا جاء رد الحق تبارك وتعالىٰ عليهم بقولهم : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ فصلت : ١٥] .

ثم أخبر الله عن نوع عقوبتهم بقوله : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أخزى وهم لاينصرون** ﴾[فصلت : ١٦] .

قال المفسرون : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً** ﴾ أي شديدة الهبوب، وقيل

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٢

الباردة، وقيل هي التي لها صوت، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ والحق أنها متصفة بجميع ذلك فإنها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ماغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً لقوله تعالىٰ : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ [الحاقة : ٦]. أي باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج[١].

بل لقد ذكر بعض العلماء في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ **عاتية** ﴾ أنها عتت علىٰ الخزان، والمعنىٰ أنها عتت علىٰ الخزنة وهم الملائكة الموكلون بالريح[٢] فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها[٣] . علما بأنه يقال إنه ما خرج منها إلا مقدار الخاتم[٤] ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ .

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ (لم ينزل الله شيئاً من الريح إلا بوزن علىٰ يدي ملك، إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فعتت علىٰ الخزان)[٥] .

وقد استمرت هذه الريح الشديدة العاتية عليهم وتتابعت كما قال تعالىٰ : ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوماً** ﴾ وهو معنىٰ ﴿ **نحسات** ﴾ أىٰ متتابعات ، حتىٰ أبادتهم عن آخرهم، وصدق الله : ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾. وأصبحوا كما قال الله تعالىٰ : ﴿ **كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ واعجاز النخل هي التي لارؤوس لها، وقد كانت ريح عاد لشدتها تحمل الرجل فترفعه في الهواء ثم تلقيه في الأرض فتشدخ رأسه فيبقىٰ جثة بلا رأس[٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير / في سورة فصلت ٧/ ١٥٨

(٢) هذا تفسير مجاهد كما في صحيح البخاري . الفتح ٦/ ٣٧٦ .

(٣) الطبري ـ التاريخ ١/ ٢٢٦ .

(٤) الفتح ٦/ ٣٧٧ .

(٥) الفتح ٦/ ٣٧٧ وقال ابن حجر ومن طريق قبيصة بن ذؤيب أحد كبار التابعين نحوه بإسناد صحيح .

(٦) ابن كثير في قصص القرآن ١/ ١٣٩ ، الفتح ٦/ ٣٧٧ .

أخي الكريم : هل سمعت بالريح العقيم ؟ إنها الريح المفردة المفسدة التي لاتثير سحاباً ولا تلقح شجراً، ولا تنتج شيئاً بل هي مرسلة للتدمير والهلاك، وتلك هي التي أرسلها الله على قوم هود ﴿ **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾[1] .

ومع شدة عذاب الله لعاد في الحياة الدنيا، فعذابهم في الآخرة أشد وأخزى وهم لاينصرون، وكما أبعدهم الله وطردهم من رحمته في هذه الحياة فكذلك هم بعد الممات : ﴿ **وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاذ قوم هود** ﴾[هود : ٦٠] .

فإن قلت وكيف أرسل الله على (عاد) هذا العذاب ؟ كان الجواب فيما ذكر أهل العلم أن الله تعالى منع المطر عنهم ثلاثة أعوام - بسبب ذنوبهم - حتى قحطوا وأجدبت أرضهم وهلكت زروعهم فطلبوا السقيا، فساق الله لهم العذاب حيث كانوا يتوقعون المطر وحينما رأوا ما في السماء من العذاب ظنوه - لجهلهم - سقيا رحمة فإذا به ما استعجلوه من العذاب، وما وعدوا به من العقاب. . قال الله تعالى : **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربهم فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾[الأحقاف : ٢٤، ٢٥] .

وهكذا سخر الله جنداً من جنده وهي (الريح الدَّبور) لإهلاك هذه الأمة الكافرة، وكذلك يفعل ربك إذا أراد نصرة جنده المؤمنين كما نصر محمداً ﷺ وأصحابه على المشركين في غزوة الخندق والأحزاب بـ (ريح الصبا) ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾.

وبهذا ندرك معنى قول النبى ﷺ «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[2]

---

(١) سورة الذاريات : آية ٤١، ٤٢، وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٤٠، وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٩٩ .

(٢) الحديث متفق عليه . انظر الفتح ٦/ ٣٧٦، ٧/ ٣٩٩ .

أما هود ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه، فلعلك تدرك أن إيمانهم بالله وطاعتهم له وتوكلهم عليه وحده كان سبباً لنجاتهم من عذاب الله، فقد صحبتهم عناية الله وأظلتهم رحمته فلم يصل إليهم شيء من هذا البلاء، وكانت الريح العاتية تهب عليهم كالنسيم ولاينجدون فيها إلا برد الراحة ونضرة النعيم، قال الله تعالىٰ وهو أصدق القائلين : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ** ﴾[هود : ٣٩] .

وقال : ﴿ **فأنجيناه والذين آمنوا معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين** ﴾[الأعراف : ٧٢] .

٤ ـ الدروس المستفادة من قصة هود مع قومه :

١ ـ عاقبة الغرور ونتيجة الجحود ظاهرة لمن تأمل في قصة عاد، فقد أمهلهم الله لعلهم يرجعون أو يستغفرون، فلما أخذهم كان العقاب شديداً، وكانت النهاية مؤلمة ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[هود: ١٠٢).

٢ ـ وفي مقابل ذلك هناك درس في الصبر والصفح والحلم يمثله هود ـ عليه السلام ـ في دعوته لقومه (عاد) وهو يقابل كذبهم وإعراضهم وتكبرهم بالنصح والتوجيه والإرشاد ، ولهذا ورد أن هوداً كان رجلاً جلداً[١] .

وينبغىٰ أن يكون كذلك من يريد أن يعظ الناس ويدعوهم إلىٰ الخير والهدي .

٣ ـ أهمية التوكل علىٰ الله وعدم الخوف من البشر مهما كانت قوتهم فهي لاشيء بالنسبة لقوة الله، فعلىٰ الرغم من قوة (عاد) فقد تحداهم (هود) عليه السلام حين قال لهم : ﴿ **إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ**

---

(١) مستدرك الحاكم ٢/ ٥٦٣ ، وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه .

بناصيتها إلى ربي على صراط مستقيم ﴾[هود : ٥٦] . وحين لم يستطيعوا أن يصلوا إليه بسوء دل على صدقه فيما جاءهم به من الحق، وبطلان ما هم عليه من الباطل.

وكذلك ينبغي أن يكون التوكل على الله صفة من صفات المسلم في حياته كلها ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [الطلاق : ٣] أي كافيه .

٤ ـ وتذكرنا قصة قوم (عاد) بأمثالهم من أصحاب الأجساد الكبيرة، والعقول الصغيرة من المنافقين الذين قال الله عنهم : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فأحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾[المنافقون : ٤] فأساس الاستقامة والصلاح صحة القلوب وسلامتها لا كبر الأجساد وضخامتها .

٥ ـ أن كل نعيم في هذه الحياة الدنيا فهو زائل، وكل قوة للبشر تنتهي بالضعف، ويبقى الحي الذي لايزول ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] .

٦ ـ على المؤمن أن يبقى دائماً مراقباً لله خائفاً من عذابه، ولا يأمن مكره وعقوبته ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

وتحكي لنا أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ مثلاً من خوف الرسول ﷺ فتقول : (وكان إذا رأي غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجه، قلت يارسول الله : إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوارجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال ياعائشة : «مايؤمنني أن يكون فيه عذاب ! قد عذب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا»(١) .

---

(١) الحديث رواه أحمد والبخاري ومسلم . . قصص ابن كثير ١/ ١٤٣، ١٤٤

٣ ـ صالح عليه السلام

١ ـ نسبة :

هو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح[١] وكان عربياً كأخيه هود ـ عليهما السلام ـ كما مر .

قوم صالح قبل بعثته :

ولاريب أن قوم صالح هم (ثمود) قال الله تعالىٰ : ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً**﴾ [الأعراف : ٧٣]. وهي قبيلة عربية مشهورة، كانوا يسكنون (الحِجْر) وإليهم أشار القرآن بقوله تعالىٰ : ﴿**ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين**﴾ [الحجر : ٨٠] .

وموقع (الحجر) بين الحجاز والشام، وهو بشكل أدق بين المدينة وتبوك[٢] قرب مدينة العلا حالياً .

ويظهر من قوله تعالىٰ : ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾ أنهم كانوا يسكنون (وادىٰ القرىٰ) وأن مناطقهم جبلية، أو هضاب ذات صخور[٣] كما يظهر من قوله تعالىٰ : ﴿**وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون**

---

(١) انظر : تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، ابن كثير ١/ ١٤٥، وفتح الباري ٦/ ٣٧٩ مع بعض الاختلاف في بعض الأسماء ـ ولعله بسبب الطبع .

(٢) انظر : تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، ٢٢٧، ابن كثير ١/ ١٤٥، معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/ ٢٢١، الفتح ٦/ ٣٧٩ .

(٣) محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء ص ٨٩، عفيف طبارة : مع الأنبياء في القرآن الكريم ص٩٢ .

الجبال بيوتاً ﴾ [الأعراف : ٧٤]. أنهم كانوا يبنون القصور الكبيرة في سهول الأرض، وينحتون البيوت الأصغر في الجبال وكانوا بعد قوم عاد كما قال الله تعالي : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

ويذكر أن الله ـ عز وجل ـ قد أطال أعمارهم ، حتىٰ إن الرجل منهم ليبني بيته من المدر ـ وهو الطين ـ اليابس المتماسك[١] فيتهدم وصاحبه لايزال حياً، فلما رأوا ذلك أتخذوا من الجبال بيوتاً فارهين، فنحتوها وجابوها وجوفوها، وكانوا في سعة من العيش[٢] .

دينهم وعبادتهم :

كانت (ثمود) كأسلافهم (عاد) قوماً وثنيين يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، ولهذا قال لهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ ﴿ **ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾[الأعراف : ٧٣] .

ومما يلاحظ أن الله تعالىٰ يجمع كثيراً بينهم وبين عاد في القرآن الكريم كما في سورة براءة، وإبراهيم ، والفرقان، وص، وق، والنجم، والفجر[٣] . ويظهر أن سبب ذلك اشتراكهما في شدة الكفر ، وعكوفهما البالغ علىٰ الأصنام، وعنادهم واستكبارهم عن الحق[٤] .

ولدعوتهم إلىٰ الحق والهدىٰ، وإقامة الحجة عليهم بعث الله إليهم رسولاً منهم يدعوهم إلىٰ الله ويحذرهم من الكفر والفسوق والعصيان ﴿ **وإلى ثمود**

---

(١) انظر : معجم متن اللغة . أحمد رضا ٥/ ٢٦٢ (دار مكتبة الحياة / بيروت/ ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٣) ذكره ابن كثير في قصص الأنبياء ١/ ١٤٩ ، ونقله الفقي في قصص الأنبياء ٥٤ ، وتأمل قوله تعالىٰ في سورة الحاقة : ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ .

(٤) الفقي : قصص الأنبياء ٥٤ .

أخاهم صالحاً﴾ الآية .

٢ ـ دعوة صالح عليه السلام :

الدعوة إلى التوحيد :

فكان أول ما دعاهم إليه إخلاص العبادة لله وحده شأنه في ذلك شأن المرسلين قبله ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..** ﴾[الأعراف : ٧٣][هود : ٦١]. فكل آلهة دون الله فهي مزعومة، وكل عبادة لغير الله مرفوضة .

تذكيرهم بعاقبة المجرمين :

ثم يذكرهم صالح ـ عليه السلام ـ بأسلافهم (عاد) وكيف كانت نهايتهم حينما عصوا وتكبروا ، وهو بهذا يحذرهم من سلوك طريقهم، ويطلب منهم أخذ العبرة مما حصل له ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً** ﴾[الأعراف : ٧٤] وكانوا فارهين في نحت الجبال أي حاذقين مجيدين في نحتها فرحين ومتكبرين بما أوتوا من قوة عليها[١] .

وعظهم وتخويفهم :

ولم يزل صالح ـ عليه السلام ـ واعظاً ومذكراً ما هم فيه من رغد العيش وصفائه، وما كان يحيط بهم من جنات وعيون، ونعمة كانوا فيها فاكهين وأن ذلك لايستمر مع الكفر والعصيان، ومما قاله لهم : ﴿ **أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين، فاتقوا الله**

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٣/ ١٢٩ .

وأطيعون، ولاتطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾[الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

طلب التوبة والاستغفار :

وهذه النعم تستحق الشكر وتتطلب التوبة والاستغفار من الجبار جلّ جلاله واستمع إلى صالح - عليه السلام - وهو يحاورهم ويربط بين النعم والمنعم، وبين الخلق والخالق ليذكر هؤلاء الغافلين بالخالق المدبر حين يقول لهم : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ أي هو الذي خلقكم من الأرض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرازق ، وهو الذي يستحق العبادة وحده ﴿ **فاستغفروه ثم توبوا إليه** ﴾ أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ **إن ربي قريب مجيب** ﴾[1] .

الدعاء وخروج الآية :

ومع ما هم فيه من نعم فقد طلبوا من (صالح) عليه السلام أن يريهم آية تكون دليلاً على صدق نبوته وإرساله من الله حيث قالوا : ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾[الشعراء: ١٥٤] .

وكأنهم بذلك - والله أعلم - أرادوا إحراج صالح وإظهار عجزه أمام الناس، وذلك حين طلبوا منه أن يخرج لهم في الحال من صخرة صماء - اختاروها هم - ناقة عشراء تمخض - أي ذات حمل قريبة الولادة - فأخذ عليهم صالح - عليه السلام - العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ماسألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، فقام نبي الله عليه الصلاة والسلام يصلي ويدعو ربه - وهل يعجز الله شيء في الأرض أو في السماء وهو الذي يقول للشيء كن

---

(١) سورة هود ، الآية ٦١، وانظر : قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٥٠، ١٥١ .

فيكون ؟! فاستجاب الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام، وتحركت الصخرة وانفطرت عن ناقة عشراء ـ على الصفة التي أرادوها ـ[١] .

وتحققت المعجزة، وصدقت نبوة صالح ـ عليه السلام ـ لكن هل آمن القوم وصدقوا ؟ ذلك سؤال ستجيب عليه الفقرة الآتية ـ بإذن الله ـ .

صبره عليهم وتلطفه معهم :

ومازال صالح ـ عليه السلام ـ يدعو قومه ويتلطف لهم في العبارة، ويصبر علي أذاهم، وانظر إليهم وهم يتهمونه في عقله ﴿ **قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا** ﴾ أي كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة ، وهي دعاؤك إيانا لإفراد العبادة . وترك ما كان يعبده أباؤنا وأجدادنا ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ . وهكذا يعجب القوم مما لاعجب فيه، ويستنكرون ما هو واجب وحق، فكان رده عليهم كله الرفق واللين والحكمة على رغم فساد قولهم وسفاهة تفكيرهم إذ قال لهم ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير** ﴾[هود : ٧٤، ٧٥] .

أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه، ما هو عذركم عند الله، ومن يخلصكم من عذابه ؟

ولن أزال أدعوكم إلى الله وحده لاشريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم[٢] .

وبعد هذا الجهد ، وهذا الصبر يعود السؤال مرة أخرى : هل آمن القوم وصدقوا ؟

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٥، ٣/ ٣٥٩، ٣٦٠ أو غيره من التفاسير حول هذه الآية .

(٢) انظر : قصص الأنبياء ، ابن كثير ١/ ١٥١

٣ـ موقف قومه ونتيجة ذلك :

كان لـ (ثمود) مع نبيهم (صالح) عليه السلام موقفان، موقف قبل الآية ـ الناقة ـ وموقف بعد خروج الناقة، كما كان قوم صالح ـ عليه السلام ـ في دعوته فريقين، فريقاً مؤمناً مصدقاً ـ وهم قلة قليلة ـ وفريقاً كافر مكذباً، وهم الغالبية العظمىٰ، وأهل القوة والكلمة، وهؤلاء لم يشكروا الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليهم من قوة، ولم ينجحوا حيث امتحنهم الله بما أعطاهم من مكانة وقدر في قومهم، فكانت مواقفهم ـ مع صالح عليه السلام ـ مخذية سواء قبل الناقة أو بعدها .

بين العقول السليمة والسقيمة :

لقد اتهموا صالحاً ـ عليه السلام ـ في عقله ـ كما سبق ـ وهو العاقل الرشيد وكان الأولىٰ أن يتهموا عقولهم إذ لم يستخدموها في معرفة الحق وطاعة الخالق بل اعتمدوا علىٰ عقول غيرهم فكانت حجتهم في رفض دعوة صالح التقليد الأعمىٰ لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من الشرك ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾؟ وهل يغني عنهم هؤلاء من الله شيئاً ؟! وأين تفكريهم هم ؟

الاتهام بالسحر، ورغبة التحدى :

واتهموه مرة أخرىٰ بالسحر : ﴿ **قالوا إنما أنت من المسَحَّرين** ﴾[الشعراء : ١٥٣]. والمعنىٰ أي من الذين سحروا كثيراً حتىٰ غلب علىٰ عقولهم، ولهذا قالوا بعدها ﴿ **ماأنت إلا بشر مثلنا** ﴾ أي لاتميز لك علينا بل أنت مسحور، ودعواك إنما هي لخلل في عقلك(١) .

ثم أرادوا امتحان صالح وتعجيزه فقالوا : فإن كنت صادقاً في دعواك ﴿ **فأت**

(١) روح المعاني للألوسي ـ الطبعة المنيرية ١٩/ ١١٣

بآية ﴾ فكانت الآية العظيمة التي نسبها الله إلى نفسه فقال ﴿ **ناقة الله وسقياها** ﴾[الشمس : ١٣] .

فهل لانت قلوب هؤلاء الطغاة ؟ وهل صحت عقولهم وهم يبصرون هذه الآية المعجزة ؟ فآمنوا بالحق وصدقوا المرسلين ؟

فريقان يختصمون :

الواقع أنهم أصبحوا كما قال الله تعالى : ﴿ **فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾[النمل : ٤٥] .

واستمع إلى هذا الحوار بين المؤمنين والمكذبين، ثم انظر هل ترى للمكذبين من حجة في الكفر سوى العناد والاستكبار ؟ ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون** ﴾[الأعراف : ٧٥] .

عقر الناقة :

لم يبق لهؤلاء المجرمين من حجة، وقد صدق الله نبيه (صالحاً) بهذا الناقة العظيمة التي أمرهم الله أن يدعوها تأكل في أرض الله ولايمسوها بسوء فلا تعذب ولا تطرد ولا تركب ولا تذبح وكان قد خصص لها يوم تشرب فيه من البئر، ولهم هم يوم آخر ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾[الشعراء : ١٥٥] ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾[القمر : ٢٨] .

وكانت إذا وردت تشرب ماء البئر كله، وكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم للغد(١) واستمرت كذلك ما شاء الله فيهم حتى إذا خشي (الملأ) الكفرة من زيادة عدد المؤمنين بصالح ـ عليه السلام ـ بسبب هذه الآية العجيبة، ورأوا أن

---

(١) ذكره ابن اسحق في (المبتدأ) وغير واحد كما نقله ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٧٩ .

هذه الناقة، قد حالت بينهم وبين الماء ولعلها كانت لعظمتها قد أرهبت أنعامهم[١]، وفوق ذلك كله فقد أراد الله لهم الخزي في الدنيا والآخرة، حينئذ انبعث أشقى القبيلة - ويقال له: قدار بن سالف[٢] وهو أحيمر ثمود[٣] وهو رجل كما جاء في الحديث الصحيح ذو عزة ومنعة في قومه[٤]. وفي لفظ (عزيز) أي قليل مثله، (عارم) أي كثير الشهامة والشر (منيع في رهطه) أي قوي له عشيرة تمنعه من الضيم[٥]، فوقع الأمر كما أخبر الله بقوله ﴿**فنادوا صاحبهم - أي قدار - فتعاطى فعقر**﴾[القمر: ٢٩] أي قتل الناقة[٦].

وليس الذي قتل الناقة هو (قدار) وحده، وإن كان هو الذي ابتدأ وباشر القتل، بل الذي قتلها هم: كفرة ثمود كلهم، لأنهم أعانوا ورضوا بقتل الناقة[٧] ولهذا نسب الله إليهم القتل في الآية الأخرى فقال: ﴿**فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم**﴾ الأعراف: ٧٧].

قال قتادة: بلغنا أن (أحيمر ثمود) لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها أي غضب عليهم، وجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء[٨].

---

(١) انظر: عفيف طبارة: مع الأنبياء/ ٩٥.

(٢) ذكر ذلك جمع من العلماء أمثال ابن كثير (التفسير ٤/ ٢٨٣) وابن حجر (الفتح ٦/ ٣٧٩) وغيرهم.

(٣) ابن كثير (التفسير ٤/ ٥٤٨).

(٤) الحديث رواه البخاري وغيره (انظر: فتح الباري ٦/ ٣٧٩).

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ٨/ ٧٠٥، وعزاه ابن كثير إلى أحمد والبخاري ومسلم: انظر قصص الأنبياء ١/ ١٥٦

(٦) قاله ابن قتيبة كما نقله عن ه ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير ٣/ ٢٢٥، ٨/ ٩٧.

(٧) الألوسي: روح المعاني ٢٧/ ٩٠.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٤٣٧ ط. دار الشعب.

الرهط المفسدون :

لقد قتلت ثمود ناقة الله وهذا جرم عظيم وفساد عريض، لكن هل كانت هذه الجريمة هي الوحيدة لثمود ؟ لقد طغت وتمادت في غيها وتطاولت على مقام النبي الكريم فحاولت قتله ـ بعد أن أنذرهم بالعذاب ـ وقال (الرهط التسعة المفسدون) من أمثال قدار بن سالف[1] نلحق صالحاً بناقته ويكون ذلك بمباغتته وأهله ليلاً ، والناس لايشعرون، حتى إذا جاء من يطالبنا بثأره ودمه أنكرنا ذلك وقلنا لم نشهد القتلة ولا نعرفهم فضلاً عن أن نُتهم نحن بقتله ؟

كان هذا مكرهم وخبثهم وما علموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم، وأنه مطلع على أعمالهم، ولذلك كشفهم وفضح مخططهم الآثم، وأنجي الله نبيه منهم، وقتلهم شر قتلة[1] وإليك ـ يا أخا الإسلام ـ خبرهم كما جاء في القرآن الكريم، فأنصت خاشعاً متأملاً عاقبة الفساد ونهاية المفسدين . قال تعالى : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولايصلحون، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذي آمنوا وكانوا يتقون** ﴾[النمل : ٤٨ـ٥٣] .

---

(١) ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هؤلاء التسعة هم الذين اشتركوا مع (قدار) في قتل الناقة، وكان ذلك على ما روى عن ابن عباس وابن إسحاق بعد أن عقروا الناقة (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٤، تفسير الألوسي : روح المعاني ١٩/ ٢١٣، قصص الأنبياء لابن كثير ٣/ ٣٨٤) .

(٢) قيل إن الله أمر الأرض فاستوت عليهم (تاريخ الطبري ١/ ٢٢٩)، وقيل إنهم ترصدوا صالحاً في (كهف) فأرسل الله عليهم صخرة فزعوا منها، وسدت عليهم الغار فأهلكهم الله فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون هم ما فعل لقومهم فعذب الله كلا منهم بناحية وأنجى صالحاً ومن آمن معه (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٤، ٣٨٥) وقيل إن الله أرسل عليهم حجارة فأهلكتهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم (قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٥٨) والله أعلم .

الصيحة الطاغية :

لم يبق لهذه الأمة الطاغية إلا أن تنتظر عذاب الله لينزل بها بكرة أو عشية، فربك يمهل ولايهمل وإذا أخذ فإن أخذه أليم شديد، وهكذا كان الأمر لثمود فقد أخذهم بالعذاب كما أخذ من قبلهم حين طغوا وتجبروا، فكانت (الصيحة) التي قطعت قلوبهم وكتمت أنفاسهم.

قال الله تعالى : ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود** ﴾[هود : ٦٦-٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾[الحجر : ٨٣، ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾[فصلت: ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر** ﴾[القمر : ٣١] .

قال ابن كثير : فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات، وحق الحق فأصبحوا في دارهم جاثمين[1] .

وكان صالح - عليه السلام - قد خوفهم بالعذاب ووعدهم إياه بعد ثلاثة أيام ﴿ **قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ فأصبحوا ووجوهم مصفرة في اليوم الأول، ومحمرة في الثاني، ومسودة في الثالث - كما أخبرهم -

---

(١) قصص الأنبياء: ١/ ١٥٩

فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب، فتخبطوا، ثم أصبحوا يقلبون أبصارهم في السماء ينتظرون العذاب فجاءهم كما قص الله[١] . وجعلهم عبرة للمعتبرين ولايظلم ربك أحداً . .

٤ ـ الدروس المستفادة :

يستطيع المتأمل في قصة (صالح) ـ عليه السلام ـ مع (ثمود) أن يسجل أكثر من درس، ويستنتج أكثر من عبرة، ولكنا نوجز بعضها بما يلي :

١ ـ إن الإيمان بالله وتصديق رسله سبب لسعادة الدنيا والفوز في الآخرة وأن نتيجة الظلم والفساد تعجيل العقوبة في الدنيا، وحصول الخزي في الآخرة .

٢ ـ دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ إلى دين الله صادقة واضحة لا تحتاج إلي آيات لتصديقها، ولهذا قال النبي ﷺ لأصحابه حينما مروا بالحجر[٢] «لاتسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم، وكانت تشرب يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ـ وهو أبو رغال ـ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[٣] .

٣ ـ أن الآيات ـ مهما كانت واضحة ـ لاتهدي القوم المجرمين، وهل من آية أوضح من الناقة وقد قال الله عنها : ﴿**وأتينا ثمود الناقة مبصرة**﴾ [الإسراء : ٥٩] أي واضحة جلية في دلالتها على وحدانية خالقها وصدق رسوله[٤] ومع ذلك

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ٢٣٠ .

(٢) هي ديار ثمود ـ كما مر سابقاً ـ

(٣) الحديث رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن ـ كما قال ابن حجر (في الفتح ٦/ ٣٨٠، ٣٨١) ، وقال ابن كثير على شرط مسلم (التفسير ٣/ ٤٣٦) .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢ .

ظلمت ثمود وعقرت، وكفرت بصالح وما جاء به وصدق الله إذ يقول : ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون**﴾[يونس : ١٠١] .

٤ ـ ديار المهلكين وآثارهم أماكن عبرة ومواضع تذكر بعاقبة المجرمين، وليست مزارات لمجرد النزهة أو لرؤية وتصوير الآثار وينبغي البكاء عندها وعدم الشرب من مياهها وقد نبه النبي ﷺ أصحابه إلى ذلك حينما مروا بديار ثمود وهم في طريقهم إلى تبوك(١) .

٥ ـ أن أثر الذنوب والمعاصي لاتهلك أشرار المجتمع فقط، بل تشمل الساكتين عن إنكار المنكر، أما الراضون بها والمشاركون فيها فهم من باب أولى، وذلك واضح في من عقر الناقة أو رضي به أو سكت عنه .

---

(١) كما في الحديث الصحيح في البخاري وغيره (الفتح ٦/ ٣٧٨) .

٤ ـ إبراهيم عليه السلام

١ ـ نسبه :

هو إبراهيم بن آزر بن ناحور بن شاروخ بن راغو بن فالخ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح[١] . وقد جاء في القرآن الكريم النص على كون اسم والده آزر ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾[الانعام : ٧٤] وكذلك نص عليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة . . »[٢] وهذا يقطع خلاف أهل النسب وأهل التاريخ في إسم أبيه[٣] ويرد على من تكلف في تأويل النصوص بما لاطائل تحته[٤] .

وإذا كان هذا نسبه من ناحية الآباء والأجداد، فلإبراهيم عليه السلام نسب عريق من جهة العقيدة والدين والفضل والمجد، فهو خليل الرحمن ﴿ **واتخذ الله**

---

(١) انظر في ذلك : قصص النبيين لابن كثير ١/ ١٦٧ ، فتح الباري ١/ ١٦٧ ، ٦/ ٣٨٩، وقد جزم ابن حجر أن هذا النسب لايختلف عليه جمهور أهل النسب ولا أهل الكتاب إلا في النطق ببعض هذه الأسماء .

(٢) الحديث رواه البخاري ـ وسيأتي بقيته بعد ـ (الفتح ٦/ ٣٨٧) .

(٣) أورد بعض أهل النسب وأهل التاريخ أن (أزر) ليس اسم أبيه وإنما اسم أبيه تارح، وأن آزر تعني الصنم، وبه قال ابن عباس ومع أن الطبري صوب كون إسم أبيه «آزر» فقد قال: ولعل لأبيه أسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم (تفسير الطبري ١١/٤٦٨ ، ٤٦٩ تحقيق محمود وأحمد شاكر)، قال ابن كثير : والذي قاله الطبري جيد قوي كما في التفسير ٢/ ١٦١ ، ومحتمل كما في التاريخ ١/ ١٧٣

(٤) اخطأ وتكلف (الفقي) حين حاول انكار كفر والد إبراهيم، متخذاً من الخلاف في اسم أبيه وسيلة، ومعتمداً على أدلة لاترقى إلى ظاهر آيات القرآن وصحيح السنة، والقول بإسلامه اعتماداً على انكار (الشيعة) كفر أحد من آباء الرسول ﷺ خلل في المنهج ينبغي التنبه له. انظر : قصص الأنبياء للفقي ص ٦٤ ، ٦٥ .

إبراهيم خليلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] .

وهو (إمام) به يقتدي ويحتذىٰ ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين** ﴾[البقرة : ١٢٤].

وهو (أمة) في الطاعة والخشوع لله ، وتعليم الناس الخير ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين** ﴾ [النحل : ١٢٠] . وهو (الرحيم الحليم) كما وصفه الله بقوله : ﴿ **إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾[التوبة: ١١٤] . فالأواه ـ بلغة الحبشة ـ تعنىٰ : الرحيم[١] .

وأخبر النبىٰ ﷺ أنه «خير البرية» فقد جاء إليه رجل فقال : ياخير البرية ، فقال له الرسول ﷺ : ذاك إبراهيم عليه السلام[٢] وهذا من تواضعه ﷺ وإلا فهو أفضل الأنبياء والمرسلين ، لكن الحديث ينبه إلىٰ فضل إبراهيم عليه السلام وخيريته .

وأخبر ﷺ أن أول من يكسي يوم القيامة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين يحشر الناس حفاة عراة غرلاً[٣] .

٢ ـ نشأته :

ولد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ (ببابل) وهي أرض الكلدانيين بالعراق

---

(١) انظر : صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه (انظر : مختصر المنذري ص ١٨٥) وانظر تعليق ابن كثير عليه في قصص الأنبياء ١/ ٢٤٤، ٢٤٥ .

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه (انظر : الفتح ٦/ ٣٨٦) قال ابن حجر : ويقال إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك لكونه ألقىٰ في النار عرياناً، وقيل لأنه أول من لبس السراويل، ولايلزم من خصوصية إبراهيم ـ عليه السلام ـ بذلك تفضيله علىٰ نبينا محمد ﷺ (الفتح ٦/ ٣٩٠).

على الصحيح[١] .

ونشأ في بيئة يعبد أهلها (الأصنام) من دون الله . فحفظه الله واصطفاه وآتاه رشده منذ صغره - وهو به أعلم - قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾[الأنبياء : ٥٨] . أي كان أهلاً لذلك ، ولهذا يقال في زمنه أن كل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً إلا إبراهيم الخليل ، وامرأته (سارة) وابن أخيه لوط عليه السلام[٢] .

وكانت ولادة إبراهيم - عليه السلام - ونشأته في عهد الملك الكافر (النمرود بن كنعان بن كوش) ملك بابل ، وهو أحد الملوك الأربعة الذين ملكوا الدنيا وهم مؤمنان وكافران (ذو القرنين وسليمان مؤمنان ، والنمرود وبختنصر كافران)[٣] كما كان والده (آزر) مقيماً على الكفر عاكفاً على عبادة الأصنام - كما سيأتي - .

٣ - دعوته وأسلوبه مع :

١ - أبيه آزر :

لاشك أن الأب أقرب الناس إلى ابنه ، وحقه في البر والإحسان أمر لايخفى ، وإذا كانت طاعة الأبناء للوالدين واجبة فلا شك أنها بحدود طاعة الله وشرعه «فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» .

وقد أردك إبراهيم عليه السلام أن من أولى البرّ بأبيه دعوته إلى الله وانقاذه من الشرك وعبادة الأصنام إلى التوحيد وعبادة الواحد الديان ، فبدأ يدعو أباه

---

(١) نص على ذلك ابن كثير (قصص الأنبياء ١/ ١٦٨ بعد أن نقل رأيا آخر بانه ولد في دمشق) .
(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ١/ ١٦٩
(٣) تاريخ الطبري ١/ ٢٣٤ ، ابن كثير : قصص الأنبياء ١/ ١٦٩

بأسلوب كله أدب، وكله لطف وعطف، وشفقة ورحمة، مبيناً له أن هذه الأصنام لاتسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع فلماذا تُعبد ؟ ثم يبين لأبيه أن الله تعالىٰ قد أعطاه من العلم النافع ما ليس عنده، وأن عبادة هذه الأصنام إنما هي طاعة للشيطان الرجيم الذي أخرجه الله من الجنة حينما عصىٰ ربه ولخبثه يريد أن يكون الناس معه في النار ، فهو عدو الإنسان الأول في هذه الحياة، ثم يذكر أباه بالنار ويخوفه منها عساه أن يتذكر أو يخشىٰ، كل ذلك يقصه علينا القرآن بأسلوب شيق وعبارة بلغية يقول الله تعالىٰ :

﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، ياأبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً** ﴾[مريم ٤١-٤٥] .

الأب يرفض ويهدد :

وإذا كان إبراهيم - عليه السلام - قد اجتهد في نصح ودعوة والده، فهو لايملك هدايته لأن ذلك بيد الله، ولقد قال الله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[القصص : الآية ٥٦] .

لكن موقف (آزر) مع ابنه (إبراهيم عليه السلام) لم يكن مشرفاً ولامنصفاً، فقد رفض الدعوة إلىٰ الخير، وهدد الداعي بالرجم والسب والشتم، وطلب منه أن لايكلمه زمناً طويلاً واستمع إلىٰ كلام آزر الكافر، وانظر إلىٰ الفرق بينه وبين كلام إبراهيم المؤمن : ﴿ **قال أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً** ﴾[مريم : ٤٦] .

ثم استمع مرة أخرىٰ إلي كلام إبرهيم لأبيه بعد أن سمع منه هذا الرد القاسي فما قابل الإساءة بمثلها بل قال : ﴿ **قال سلام عليك** ﴾ أي لايصلك منىٰ مكروه

ولاينالك مني أذي، بل أنت سالم من ناحيتي، بل زاده خيراً فقال: ﴿ **سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً** ﴾[١].

وقد استمر الابن يستغفر لأبيه ويرجو له الهداية حتىٰ مات مشركاً وعندها أيس من إسلامه وتبين له أنه عدو لله فتبرأ منه، قال تعالىٰ: ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾[٢].

وبعد ـ أيها النشء المسلم ـ إذا كان هذا خُلُق (إبراهيم الخليل) عليه السلام مع أبيه وهو المشرك النجس، فماذا ترىٰ ينبغىٰ أن يكون خلق الابن مع أبويه المسلمين الطاهرين ؟

ب ـ مع قومه :

لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مع قومه أكثر من موقف وأسلوب في الدعوة وله مع أصنامهم ومعبوداتهم أكثر من قصة، فتراه مرة يناظرهم بالحجة والبرهان لإثبات وحدانية الله وإبطال ما سواه في هذا الكون مهما كان حجمه ـ كالشمس أو القمر أو غيرهما ـ ومرة أخرىٰ يناقشهم في عبادة هذه الأصنام التي لاتدفع عن نفسها ولاتضر أو تنفع غيرها ثم ينتقل خطوة ثالثة حينما يحطم الأصنام ليؤكد لهم أن لو كانت آلهة لما استطاع تحطيمها .

ب / ١ الإله الحق لايأفل ولايزول :

واستمع إلىٰ أول هذه القصة، والخليل عليه السلام يثبت لقومه بالدليل العملي إن ما سوىٰ الله من المعبودات تتعرض للزوال والأفول ـ وهو الغياب ـ في بعض الأحيان والإله الحق لايزول ولا يحول، بل ولاتأخذه سنة ـ وهي خفيف النوم ـ ولانوم، وهو ما ثقل منه يقول تعالىٰ في سورة الأنعام :

---

(١) سورة مريم : الآية ٤٧، وانظر : قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٢٧١ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٤ وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٢ .

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأي كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ولاأخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون.. ﴾ إلىٰ قوله : تعالىٰ : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾[الأنعام : ٧٥-٨٣] .

ومن خلال هذه المحاورة نقف علىٰ الأمور التالية :

١ - إن موقف إبراهيم عليه السلام مع هذه الكواكب موقف مناظرة وليس موقف نظر[١] أي إن إبراهيم عليه السلام لم يشك في وحدانية الله، ولم يرد في ذهنه احتمال كون أحد هذه الكواكب رباً له، وإنما أراد أن يتنزل معهم ويجاريهم في معتقدهم حتىٰ يثبت لهم أنها لاتصلح أن تكون رباً لأحد وهي تطلع وتغيب، ولاتستمر علىٰ حال ولعل ذلك أدعىٰ لقبولهم وأنسب لدعوتهم من مهاجمتها مباشرة، واسقاطها دون مقدمات .

٢ - واستطاع إبراهيم عليه السلام - بالمنطق السليم والحجة القوية - إثبات عظمة الله وألوهيته واستحقاقه للعبادة، فهو الذي فطر السماوات والأرض وهو الذي يسير هذه الكواكب في السماء فحين تطلع الشمس يختفىٰ بنورها ما عداها من الكواكب، وحينما يرخي الليل سدوله وتحجب الشمس تظهر هذه الكواكب : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ .

---

(١) هناك من جنح من المفسرين فاعتبر الموقف موقف نظر لامناظرة كما فعل الطبري مستدلاً علىٰ ذلك بقوله ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ وخالفه ابن كثير حيث أكد أنه موقف مناظرة لانظر. (تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٣) .

٣ - كما استطاع إبطال ألوهية هذه الكواكب والتنديد بمن يعبدها بأسلوب غير مباشر. فهو يتهم من يتخذها آلهة بالضلال ﴿ **لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين** ﴾ وهو يرىٰ أن اتخاذها آلهة من دون الله شرك ينافي كمال التوحيد ﴿ **قال ياقوم إني برئ مما تشركون** ﴾ وصدق الله - وهو أصدق القائلين - حيث يقول: ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾[الأنعام: ٨٣].

ب / ٢ أهل بابل[١] والأصنام:

ويستمر حوار إبراهيم - عليه السلام - مع قومه وهو يحاول تفنيد معبوداتهم من دون الله، وكشف زيغهم وضلالهم، ودعوتهم إلىٰ الحق وتبصيرهم بالهدىٰ.

نقاش هادئ وتقليد جامد !

ولقوة حجة إبراهيم وضعف حجة الكافرين فهو يستخدم معهم في البداية أسلوب الحوار والمناقشة الهادئة كما قال تعالىٰ: ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين! قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟** ﴾[الشعراء: ٦٩ - ٨٢].

ويقول تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟** ﴾[الأنبياء: ٥١-٧٠].

---

(١) لاشك أن أهل بابل - قوم إبراهيم - عبده أصنام، لكن هناك من يرىٰ أن مناظرة إبراهيم في ملكوت السموات والأرض - السابقة - و المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿ **وكذلك نرىٰ إبراهيم ملكوت السموات والأرض..** ﴾ الآيات ٧٥-٨٣ من سورة الأنعام، لم تكن مع أهل بابل، وإنما كانت مع أهل حران بالشام، وهذا ما يرجحه ابن كثير، ويرىٰ أنهم كانوا يعبدونها (انظر قصص الأنبياء ١/ ١٧٥) لكن ما المانع أن يكون أهل بابل كذلك، ولعل قوله تعالىٰ عن إبراهيم ﴿فنظر نظرة في النجوم.. إلخ) يؤيد ذلك.

وحينما يلزمهم الحجة ولايجدون له إجابة مقنعة يكتفون بالقول: هكذا كان يفعل آباؤنا، وكذلك كانوا يعبدون ؟ ﴿ **قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ ﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ .

وأمام هذا التقليد الأبله الأعمى، والتعصب والجمود على طريقة الآباء لم يجد إبراهيم بداً من اغلاظ القول لهم وزجرهم ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾[الأنبياء : ٥٤] .

التظاهر بالسقم :

بل كان عليه السلام يفكر في الفرصة المناسبة التي يستطيع بها القضاء على هذه الأصنام، وذلك لأمرين، أحدهما أن القوم ليسوا على استعداد للنقاش، وليس يجهلهم أنها حجارة صماء لاتسمع ولا تبصر، لكنهم فقط مقلدون لغيرهم! ، أما الآخر فأراد إبراهيم أن يثبت لهم بالدليل العملي أن هذه الأصنام غير جديرة بمقام الألوهية حين لاتدفع عن نفسها اعتداء المعتدين ؟ ولا تنكر أو تضر المؤمنين؟ فلماذا يعبدونها ؟

ووجد إبراهيم الفرصة حينما دعاه القوم إلى الخروج معهم إلى ظاهر البلد لحضور عيد من أعيادهم، فتظاهر لهم أنه سقيم - أي مريض[1] . واعتذر عن الخروج فعذروه، قال تعالى في سورة الصافات ﴿ **فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم، فتولوا عنه مدبرين** ﴾[الصافات : ٨٨-٩٢] . وكان قد وعد بتحطيم أصنامهم حينما قال: ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾[الأنبياء : ٥٧] .

إبراهيم يحطم الأصنام :

فما الذي وقع بعد ذلك ؟ لقد ذهب إبراهيم - عليه السلام - إلى هذه الأصنام في أماكنها ، وهو يحمل (فأسه) معه، وقبل أن يحطمها حاورها حوار المستهزئ فقال: ﴿ **ألا تأكلون ؟ مالكم لاتنطقون** ﴾[الصافات : ٩١-٩٣] .

---

(١) فصل بعض المفسرين في هذا المرض ونوعيته (انظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٤) ولم نر حاجة للتفصيل فيه .

ثم مال عليها يضربها بيمينه ويحطمها بفأسه حتى جعلها (جذاذاً) أي حطاماً حيث كسرها كلها، إلا الكبير منها فقد أبقاه، وعلق عليه القدوم (الفأس) أتدري لماذا فعل هذا إبراهيم ؟ ستعلمه بعد حين !

واقرأ ذلك كله في قوله تعالى : ﴿ **فراغ إلى ألهتهم فقال : ألا تأكلون، مالكم لاتنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين** ﴾[الصافات : ٩١-٩٣]. وقوله تعالى : ﴿ **فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾[الأنبياء : ٥٨] .

المحاكمة الخاسرة :

فلما رجع القوم من عيدهم، ووجدوا أصنامهم محطمة، ثارت ثائرة الكفر عندهم وقالوا في غضب شديد ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾[الأنبياء : ٥٧-٦٦] وكان إبراهيم قد أسمع بعضهم بتهديده لهذه الأصنام حينما قال : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ فقال هؤلاء : ﴿ **سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ هنا فرح القوم وقالوا : ﴿ **فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾[الأنبياء : ٥٧-٦٦] أي ليسمع الناس كلهم قوله وينظرون إلى عقوبته، وكان إبراهيم عليه السلام يتمنى هذا اليوم الذي يجتمع فيه الناس كلهم فيدعوهم إلى الله، ويقيم عليهم الحجة في بطلان عبادة الأصنام ويكشف جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأوثان التي هم نحتوها بأيديهم[1] .

واجتمع الناس فابتدأت المحاكمة، وكان أول سؤال لإبراهيم قالوا : ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ؟** ﴾[الأنبياء : ٥٧-٦٦] فكان جوابه ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ [الأنبياء : ٥٧-٦٦] وكان الخليل عليه السلام يقصد من ذلك أن يسرعوا بالقول : إنها لاتستطيع النطق فيعترفوا بكونها جمادات لاتصلح للعبادة لكنهم لم يفعلوا ذلك في البداية، بل كما قال تعالى ﴿ **فرجعوا**

---

(١) انظر تعليق وتفسير ابن كثير على هذه الآيات في (التفسير٥/ ٣٤٣، قصص الأنبياء١/ ١٨٠).

إلي أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ أي لاموا أنفسهم حيث تركوها لاحافظ لها ولاحارس عندها ـ وهل يحتاج الإله إلىٰ من يحرسه ؟ إلا مثل هذه الآلهة المزعومة ! . لكنهم لم يستمروا علىٰ ذلك ، وبعد حيرة سوء وتردد ـ كما قال قتادة ـ أطرقوا ثم قالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أي فكيف تأمرنا بسؤالها ، وهنا واتت الفرصة لإبراهيم عليه السلام ليعلنها كلمة حق علىٰ الملأ المجتمعين ﴿ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولايضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟ ﴾[الأنبياء : ٦٨] .

وهكذا انتصر إبراهيم في هذه المحاكمة ، وخسر المشركون هذه الجولة ، وصدق الله ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾[الأنعام : ٨٣] .

التهديد بالقوة :

وحينما هزموا بالحجة والبرهان عدلوا إلىٰ القوة والسلطان ، حيث لايملكون سواها ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾[الأنبياء : ٦٨] فلم يبق أمامهم إلا أن يحرقوا إبراهيم بالنار ، وهنا تذكر الروايات انهم اجتهدوا كثيراً في الإعداد لهذه النار ، حتىٰ قيل إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن شفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم [١] . ونقل أنها بلغت من الارتفاع وشدة الحرارة إلىٰ درجة كانت تتساقط معها الطيور التي تمر بها في السماء[٢] وحينما اكتمل اشتعال النار واشتد لهيبها لم يستطيعوا القاء إبراهيم فيها بأيديهم وعن قرب ، بل حملوه علىٰ آلة منجنيق ثم رموه بها .

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٤٢ . تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٥ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٨٢ .
(٢) تاريخ الطبري ١/ ٢٤٢ .

الله يحفظ أولياءه :

ثم ماذا كانوا يتوقعون أن يكون مصير إبراهيم ؟ لاشك أنهم جزموا أنه سيتحول إلى فحم أو رماد، وكذلك كان يتوقع لو كان الأمر طبيعياً ! لكنه ليس كذلك، وهل يتخلى الله عن أوليائه في أوقات الشدائد والمحن ؟ كلا، لقد قال القوم كلمتهم (قالوا حرقوه)، وقال الله كلمته ﴿ **قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ فأبطلت كلمة الله كل قول وأحبطت كل كيد ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾[الأنبياء: ٧٠] . فإن قلت كيف لم تحرق النار إبراهيم والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية ؟ أجبت: بأن الذي قال للنار كوني حارقة هو الذي قال لها : كوني برداً وسلاماً[١] ، وهل يعجز الله شيء؟ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [يس : ٨٢] .

وإن قلت هل خاف إبراهيم ـ عليه السلام ـ أو نسى الله في هذه اللحظات المحرجة وهو يساق إلى الموت سوقاً ؟ أجبت بأن إبراهيم كما كان (أمة) في تحطيم الأصنام، فقد كان كذلك (أمة) وهو يساق إلى النار حيث توكل على الله ووثق بنصره واكتفى بالقول (حسبنا الله ونعم الوكيل) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح[٢] .

فكفاه الله ووقاه حرّ النار، وتأمل في حكمة قوله تعالى : ﴿ **كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ وقد ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأبي العالية : (لولا أن الله عز وجل قال ﴿ **وسلاماً** ﴾ لأذى إبراهيم بردها[٣] .

فسبحان الله العظيم ملاذ المؤمنين، ومنجي عباده الصالحين ! أما الكفرة المجرمون فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأن يَغلِبوا فغُلبوا ، وأن يربحوا

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ١٧/ ٤٢ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه، انظر : الصحيح مع الفتح ٨/ ٢٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٦.

فخسروا، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن النار لاتكون عليهم برداً ولا سلاماً، بل هي كما قال الله تعالي : ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾[١] ذلك جزاء الإيمان، وهذا عاقبة الكفر والطغيان .

ج ـ مع الملك النمرود :

هذه قصة أخرىٰ من محاورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع القوم الكافرين، يقول الله تعالىٰ فيها : ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾[البقرة : ٢٥٨] .

وصاحب هذه القصة مع إبراهيم هو ملك (بابل) واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ـ كما قال (مجاهد) والمفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار[٢] .

وهو أحد الكفرة ممن ملكوا الدنيا كلها ـ كما سبق ـ وكان سبب محاجته لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ جهله ، وغروره، وكبرياءه بسبب ما آتاه الله من الملك ﴿أن أتاه الله الملك﴾ كما دعاه طول الأمل[٣] والإعجاب بنفسه وقدراته إلىٰ ادعاء «الربوبية» ومناظرة إبراهيم ، فلما قال إبراهيم ربي الذي يحيىٰ ويميت ـ وهو محق فيما قال وأمور الحياة تشهد بقدرة الله علىٰ الإحياء والإماته ـ قال الكافر: أنا أحي وأميت، قال إبراهيم : وكيف تحيي وتميت ؟ قال : يؤتىٰ إلىٰ بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وأمر بالعفو عن الآخر

---

(١) انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ١٨٤ .

(٢) قاله ابن كثير في قصص الأنبياء ١/ ١٨٧ ، والبداية والنهاية ١/ ١٦١

(٣) ذكر أن «النمرود» هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، كلها كفر وطغيان، وتجبر وعناد (قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٨٨) .

فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماته[١] .

وهو كما ترى جواب ساقط، وتفكير ساذج ومكابرة وتعنت، ولم يرغب الخليل - عليه السلام - إضاعة الوقت معه بطول المجادلة وبيان فساد رأيه، فانتقل به إلى سؤال أخر ليفضحه على الملأ، وليكشف عجزه عن السؤال الأول والآخر، إذ قال له إبراهيم ﴿ **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحى وتميت فالذي يحيى ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما أدعيت فأت بها من المغرب[٢] . . وهنا بهت الكافر فلم يستطيع الإجابة وهل يستطيع أحد أن يتصرف في هذا الكون إلا الذي خلقه فتبارك الله أحسن الخالقين .

وهكذا انكشف عناد وتكبر هذا الطاغية، وتبين أن سؤال (إبراهيم) الأول له كان مقدمة لسؤاله الثاني. فلما بُهت عن «العناد» في الثاني، أبطل إبراهيم - عليه السلام - به ما ادعاه في الأول والثاني فهل رأيت قوة حجة إبراهيم وقدرته على الحوار وإسكات الخصوم ؟ ثم هل علمت أن ذلك مما علمه الله لإبراهيم؟ وصدق الله : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾[الأنعام : ٨٣] .

ثم تأمل سر قوله تعالى : ﴿ **والله لايهدي القوم الظالمين** ﴾ فهناك فرق بين أن

---

(١) هذه الرواية - في كيفية احياء النمرود - مروية عن قتادة ومحمد ابن إسحق والسدي وغير واحد (تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٥) ونقلها الطبري وغيره في التاريخ ١/ ٢٤٠

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٦ = وله - رحمه الله - في هذه المحاورة كلام نفيس حيث قال : (وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلي المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة «ردية» وليس كما قالوا، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني . . »

يُهدي هذا الملك وأن يبهت، ولم يهده الله إلى الحق لأنه لم يطلب الهداية، ولم يكن حواره لمعرفة الحق واتباعه [١] .

٤ ـ هجرة إبراهيم وبناء البيت :

أيقن خليل الله ـ عليه السلام ـ أن قومه مصرون على كفرهم، وعاكفون على أصنامهم، بعد أن غلبت حجته حجتهم، وبعد أن كشف لهم ضعف وتفاهة معبوداتهم، وعظمة وقدرة خالقهم ـ جل وعلا ـ ولقد أبصر «القوم» من آيات الله ما يكفي لهدايتهم وتصديق نبيهم، ولكنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

حينئذ فكر (إبراهيم) في الهجرة إلى بلد آخر يعبد فيه ربه والانتقال إلى قوم آخرين يدعوهم إلى الله، يقول الحق تبارك وتعالى عن هجرته : ﴿ **فآمن له لوط، وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم** ﴾[العنكبوت : ٢٦] .

ويذكر أهل التاريخ أنه حين هاجر من بلده (بابل) كان بصحبته ابن أخيه (لوط) عليه السلام، وزوجته (سارة)، ولم يكن له حينئذ ولد لأن زوجته كانت عاقراً لاتلد[٢] وكانت هجرته إلى «الأرض المباركة» كما قال تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾ . وسواء كانت الأرض المباركة «الشام»[٣] » أو «مكة»[٤] فلا شك إن إبراهيم عليه السلام هاجر إلى كليهما، وأقام بكل منهما فترة من الزمن بل وهاجر إلى غيرهما ـ كما سيتضح لك ـ .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ١/ ١٦ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٦٣

(٣) قاله أبي بن كعب، وأبو العالية وقتادة وغيرهم، وكأن تقديم ابن كثير له يشعر بميله إليه (البداية والنهاية ١/ ١٦٣) .

(٤) رواه العوفي عن ابن عباس (البداية والنهاية ١/ ١٦٣) .

إبراهيم عليه السلام في أرض الشام :

حين هاجر إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أرض العراق إلى أرض الشام كانت «حران» وهي من أعمال الشام ـ أول ما نزل، وكان أهلها يعبدون الكواكب من دون الله كما سبق[١] .

والذي لاشك فيه إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين نزل هذا البلد بدأ يدعو أهله إلى الله ، ويبصرهم طرق الهداية، ويبين لهم ما هم فيه من انحراف عن الصراط المستقيم، وأنه مكث عندهم ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها إلى أرض «التيمن» وهي أرض بيت المقدس وما حولها[٢] وهي التي أطال المكوث فيها، وكانت وفاته ـ عليه السلام ـ بها[٣] .

بين مصر وأرض التيمن :

خرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو وزوجته «سارة» من بلاد الشام قاصدين «مصر» وكان بها ملك جبار ظالم، فأخبر هذا الظالم أنه قد نزل بأرضك رجل ومعه أمرأة من أحسن الناس، فأرسل هذا الملك الجبار إلى إبراهيم ـ عليه السلام يسأله عن هذه المرأة فقال إنها أختي .

عبرة في قصة سارة :

ثم انطلق إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى سارة وقال لها : إن هذا سألني عنك فقلت إنك أختي، وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي فلا تكذبيني عنده، فلما أدخلت عليه قام إليها ـ يريد بها سوءً ـ فأقبلت تتوضأ

---

(١) انظر : هامش رقم (١) في ص ٦٥ .

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، محمد سرور زين العابدين/ ١٣٢

(٣) يرجح ابن كثير وفاته في البلد المعروف بالخليل، ويقول إن ذلك نقل بالتواتر أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا ـ يقصد زمنه ـ (البداية والنهاية ١/ ١٩٠) .

وتصلى وتدعو وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني أمنت بك وبرسلك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر، فاستجاب الله دعاءها، وأُخذ الكافر وأصيب حتى طلب من «سارة» أن تدعو الله له، ولايضرها بعد، فدعت له، فأُرسل، ثم حاول بها مرة ثانية، وثالثة وكلما حاول دعت الله كما دعت أول مرة فصرف عنها كما صرف أولاً، فلما أيس منها، وعلم أنها حُفظت عنه، قال أخرجوها عني، إنكم ما أتيتم إلى بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان ثم أمر بإعطائها «هاجر» لتخدمها، فجاءت إلى زوجها «إبراهيم» عليه السلام، وهو قائم يصلي ويدعو الله فقالت له: أشعرت أن الله رد كيد الفاجر، وأخدم وليدة - تعني هاجر -[1]

إبراهيم يعود إلى أرض التيمن ومنها إلى مكة المكرمة:

عاد إبراهيم - عليه السلام - إلى أرض التيمن، وبصحبته سارة، وهاجر (القبطية المصرية)، وكانت سارة عاقراً لم تلد، وقد كبر سنها، فعرضت على إبراهيم - عليه السلام - أن يتزوج من «هاجر» عساها تلد له، ففعل إبراهيم، فتزوج بهاجر، وولدت له إسماعيل - عليه السلام - وشاء الله أن تحمل سارة كذلك ثم تلد - بعد ولادة هاجر - إسحق - عليه السلام - ثم إنه وقع بين «سارة» و«هاجر» ما يقع بين النساء من غيرة وخلاف، فكانت هجرة إبراهيم - عليه السلام - بهاجر - إلى أرض مكة، لأكثر من حكمة كما ستراها.

بناء البيت العتيق:

ما أحسن القصص، وخاصة قصص الأنبياء - عليهم السلام - وما أجمل الحكايات وخاصة إذا كانت صحيحة، وقصة بناء البيت من هذا النوع، فاستمع

---

(١) القصة رواها البخاري في صحيحه، انظر: الصحيح مع الفتح ٦/ ٣٨٨.

إليها وتأمل في أحداثها .

فقد روىٰ «البخارىٰ» في صحيحه، عن ابن عباس ـ رضىٰ الله عنهما ـ قال: أول ما اتخذ النساء المنطق[١] من قبل «أم إسماعيل» اتخذت منطقاً لتعفي أثرها علىٰ سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل[٢] ـ وهي ترضعه ـ حتىٰ وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة يؤمئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفَّىٰ إبراهيم منطلقاً، فتبعته «أم إسماعيل» ، فقالت: ياإبراهيم: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولاشيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لايلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم، قالت: إذاً لايضيعنا ، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتىٰ إذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم** ـ حتىٰ بلغ ـ **يشكرون**﴾[إبراهيم: ٣٧] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتىٰ إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش إبنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوىٰ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت «الصفا» أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الواديٰ تنظر هل ترىٰ أحداً، فهبطت من الصفا حتىٰ إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعىٰ الإنسان المجهود حتىٰ جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترىٰ أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس قال النبىٰ ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت علىٰ المروة سمعت صوتاً فقالت : صهٍ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت أيضًا فقالت :

---

(١) المِنْطَق ـ بكسر الميم، وسكون النون، وفتح الطاء ـ هو ما يشد به الوسط (الفتح ٦/ ٤٠٠) .

(٢) وفي روايه أخرىٰ عند البخاري ما هو أوضح من ذلك حيث ورد «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل . . .» (الصحيح مع الفتح ٦/ ٣٩٨) .

قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . . فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لاتخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لايضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله (حتى إذا ما نزلت جرهم عند البيت وشب الغلام اسماعيل وتزوج، وجاء أبوه إبراهيم ـ عليه السلام ـ لزيارته أكثر من مرة ـ في قصة طويلة) وفي آخر مرة جاءه وهو يبرئ نبلاً له تحت دوحة قريبة من زمزم قال له ياإسماعيل: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر[1] فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان ﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**﴾[البقرة: ١٢٧] . قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**﴾[2] .

وهكذا بني البيت بأمر الله في واد غير ذي زرع، ولم يكن به قبل ساكن حتى إذا شاء الله أنبع الماء لإسماعيل ـ عليه السلام ـ فاجتمع الناس حوله وحول أمه استجابة لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام حينما وضع زوجته وابنه بهذا الوادي وقفي وهو يدعو ويقول ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات**

---

(١) المقصود بهذا الحجر مقام إبراهيم عليه السلام .

(٢) انظر: الرواية بتمامها في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب يزفون، النسلان في المشى (الفتح ٦/ ٣٩٦ـ٣٩٨) .

لعلهم يشكرون ﴾[إبراهيم : ٣٧] .

وينبغي أن تعلم أخي الشاب أن بناء البيت لم يكن صدفة عابرة، بل هو بوحي الله واختيار الله ولأمر يريده الله ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجلاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ..** ﴾ الآية [الحج: ٢٦-٢٨] .

٥ ـ ذرية إبراهيم (إبراهيم أبو الأنبياء، عليهم السلام)

بين نوح وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ :

خص الله «نوحاً» و«إبراهيم» عليهما السلام، بأن جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فقال تعالىٰ ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾[الحديد : ٢٦] فأما «نوح» عليه السلام فلإن الله تعالىٰ لم يجعل لأحد من المؤمنين ممن كانوا معه في السفينة نسلاً ولا عقباً سواه، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾[الصافات : ٧٧] .

وكل من في الأرض اليوم ينسبون إلىٰ أولاد نوح الثلاثة : سام ، حام ، يافث[1]

النبوة تنتهي إلى إبراهيم وذريته ـ عليهم السلام ـ :

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد انتهت إليه النبوة ثم كانت في عقبه من بعده حيث كانت في ذرية إسحاق أولاً حين وهب الله له يعقوب ـ عليهما السلام ـ

---

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٢٥، ١٢٦، وقد أورد حديث النبي ﷺ في أب العرب والروم والحبشة .

كما قال تعالىٰ : ﴿ **ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾[هود : ٧١] . وقال تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة** ﴾الانبياء : ٧٢] ثم خلف يعقوب - وهو إسرائيل - عليه السلام - الأسباط الإثنا عشر وهم بنو إسرائيل، ومازالت النبوة في بني إسرائيل حتىٰ كان آخر أنبيائهم عيسىٰ - عليه السلام - الذي بشر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وببعثة محمد ﷺ أنتقلت النبوة والرسالة من ذرية إسحق إلىٰ ذرية إسماعيل - عليه السلام - وهكذا يكون إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء ويتبين لك كيف كانت النبوة في ذريته من بعده، ولاشك أن هذا فضل الله وفضل الله يؤتيه من يشاء، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

٦ - الدروس المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام :

الدروس المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام كثيرة ومهمة ولكن نكتفي بذكر بعضها :

١ - التأمل في هذا الكون الفسيح يهدىٰ الإنسان إلىٰ خالقه، ويزيده إيماناً علىٰ إيمانه وقد وجه إبراهيم عليه السلام إلىٰ النظر في بعضها (الشمس، القمر، النجوم) وانتهىٰ من خلال تأمله في حركتها إلىٰ أن لهذه المخلوقات خالقاً يسيرها ويرعاها، ولايزال التفكير في مخلوقات الله سنة مهملة يحث القرآن الكريم علىٰ الاستفادة منها، يقول تعالىٰ : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾[آل عمران : ١٨٩] .

٢ - للشباب دور عظيم في الإسلام ، وتأتي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام لتؤكد ذلك، فهو حين حطم الأصنام كان فتىٰ ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ لكنه كان عالي الهمة، قوي العزيمة، صادق النية، شجاعاً - دون تهور - في عقيدته .

٣ - الهجرة في سبيل الله ومفارقة الوطن والعشيرة من سنن المرسلين، إذا لم

يستطع المسلم القيام بما أمر الله، وحال العدو بينه وبين نشر دين الله في بلده وبين أهله وعشيرته .

٤ - لابد من معرفة كيد الطغاة والمجرمين للدعوة والدعاة على مر العصور وأخذ الحيطة والحذر منهم، وفضح مخططاتهم، حتى لاينخدع الناس بباطلهم .

٥ - ولابد من الثقة بنصر الله والتوكل عليه وحده، وهذا منهج الأنبياء والمرسلين عليهم السلام - ومن سار على نهجهم - فهذا إبراهيم عليه السلام يكتفى بالقول : حسبنا الله ونعم الوكيل حين ألقى في النار، فيجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وهذا محمد ﷺ وصحابته حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، اكتفوا بالقول ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء .

٦ - يحتاج المسلم إلى حجة وبرهان وقوة بيان لبيان الحق وطرقه وكشف الباطل وأهله أما العاطفة دون دليل، فربما كان صاحبها عرضة لاستهزاء المعاندين، والخليل عليه السلام بحق كان نموذجاً للمسلم والداعية الحق .

٥ ـ إسماعيل عليه السلام

١ ـ مولد إسماعيل ونشأته :

مر معك أن الخليل عليه السلام مكث فترة من الزمن لايولد له ، حتىٰ إذا كبر سنة أشفقت عليه زوجته «سارة» التي لم تلد بعد، فعرضت عليه الزواج بجاريتها «هاجر» لعل الله يهبه منها ولداً ، ففعل فأنجبت له إسماعيل ـ عليه السلام ـ في أرض التيمن (الشام) ، وحين وقع الخلاف بين الزوجتين، هاجر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بزوجته هاجر وإبنها إسماعيل إلىٰ مكة ثم وضعهما في وادٍ لازرع فيه ولا ساكن، وحين أراد العودة تعلقت به هاجر وقالت : وكيف تتركنا في هذا المكان ولا أنيس ولا طعام ؟ فلم يجبها، حتىٰ إذا شعرت أنه مصر علىٰ ذلك سألته : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت إذاً لايضيعنا، وحفظ الله الغلام وأمه، ورزقهم من حيث لم يحتسبوا ـ وقد مر معك قصة نبع الماء، واجتماع الناس حولهم بسببه .

قبيلة جرهم في الحرم ونشأة إسماعيل بينهم :

وكانت قبيلة «جرهم»[1] أول قبيلة تنزل عند إسماعيل وأمه، وذلك أن رفقة منهم أبصروا طائراً يحوم ويتردد علىٰ الماء ـ وهم في أسفل مكة، فقالوا إن هذا الطائر ليدور علىٰ ماء وإن كان عهدنا بهذا الوادي لاماء فيه، فأرسلوا رسولاً فوجد أم إسماعيل وأخبرهم عن الماء، فقدموا، ثم استأذنوا أم إسماعيل في النزول عندها، فقالت نعم، ولكن لاحق لكم في الماء، ثم أرسلوا إلىٰ أهليهم

---

(١) كانت جرهم يومئذ بواد قريب من مكة، ويقال أن أصلهم من العمالقة وهم أول من تكلم بالعربية (الفتح ٦/ ٤٠٣) .

فنزلوا معهم، حتىٰ إذا كثرت بيوتهم، وشب الغلام «إسماعيل» عليه السلام - فيهم، وتعلم العربية منهم وأعجبهم زوَّجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، وقدم عليه أبوه الخليل عليه السلام أكثر من مرة لزيارته لكنه لم يوافقه ولم يره في الزيارتين، فكان يترك له السلام وأوصاه في المرة الأولىٰ بتطليق زوجته التي اشتكت كثيراً من ضيق عيشهم وسوء حالهم! أما المرة الأخرىٰ فأوصاه بالإمساك علىٰ زوجته لأنه حين سألها قالت: نحن بخير وسعة وأثنت علىٰ الله خيراً..[1].

وهكذا نشأ إسماعيل في مكة، حتىٰ أنزل الله عليه النبوة، وأرسله إلىٰ قبائل «جرهم» و«العماليق» و«أهل اليمن»[2]

٢ - قصة الذبيح والفداء:

ابتلىٰ الله خليله إبراهيم - عليه السلام - عدة ابتلاءات فصبر ووفىٰ كما قال تعالىٰ ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾[النجم: ٣٧] ابتلاه حينما ألقاه المجرمون في النار فاكتفي بالقول ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فقال الله للنار كوني برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين وابتلاه ربه بشرائع وأوامر ونواه فأتمهن كما قال تعالىٰ: ﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾[3].

ثم كان البلاء العظيم حين أمره بذبح ابنه «إسماعيل» الذي وهبه إياه علىٰ كبر سن، وشفقة للولد، فلما أحب الأب ابنه، وبلغ الأبن مع أبيه السعي، وكان نجيباً وصفه ربه بالحلم والعلم ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾[الصافات: ١٠١] ﴿وبشروه بغلام عليم﴾[الذاريات: ٢٨] رأىٰ إبراهيم - عليه السلام - في المنام أنه يذبح

---

(١) صحيح البخاري، انظر: الفتح ٦/ ٣٩٧.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٣١٤، والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٠٩.

(٣) سورة البقرة آية ١٢٤، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية ١/ ٢٣٧

إسماعيل - عليه السلام - ورؤىٰ الأنبياء - عليهم السلام - حق .

ومع صعوبة الأمر علىٰ نفسه إلا أنه استجاب لأمر الله دون تردد أو انزعاج يقبل أمر الله ويسلم لقضائه وشرعه ويتقدم إلىٰ ابنه بنفس واثقة مطمئنة ليقول له ﴿**إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى**﴾[الصافات : ١٠٢] .

والأمر شاق - ما في ذلك شك - فهو لايطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلىٰ معركة، ولايطلب إليه أن يكلف أمراً تنتهىٰ به حياته، إنما يطلب إليه أن يتولىٰ هو بيده، يتولىٰ ماذا ؟ يتولىٰ ذبحه، وهو مع هذا يتلقىٰ الأمر هذا التلقىٰ، ويعرض علىٰ ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروىٰ في أمره، وأن يرىٰ فيه رأيه . . »(١)

وحين نعلم هذا الرضا والتسليم لأمر الله من خليله إبراهيم عليه السلام، فماذا عساه يكون موقف الإبن إسماعيل عليه السلام ؟

إن الغلام يرتقىٰ بإيمانه إلىٰ المستوىٰ الذي بلغه أبوه، فتكون إجابته طاعة، وكلها أدب مع الرب ومع الأب ﴿**قال ياأبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾[الصافات : ١٠٢] .

ثم يخطو مشهد القصة خطوة أخرىٰ نحو التنفيذ، فيكب الأب ابنه علىٰ جبينه استعداداً للأمر، ويسلمان جميعاً أمرهما لله، ويحققان الطاعة والعبودية لله، ولم يبق إلا أن يذبح إبراهيم ويسيل دم إسماعيل، فالإبتلاء تم، والإمتحان قد وقع، والغاية قد تحققت، وعلم الله صدقهما، فلا حاجة إذاً أن يسيل الدم، وأن يذبح الغلام الحليم فتتجلىٰ رحمة الله ويناديٰ إبراهيم عليه السلام أن قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزىٰ المحسنين وينزل فداء إسماعيل - من السموات

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٥ .

العلىٰ ـ كبشاً وجده إبراهيم عليه السلام قد هيأ له بأمر الله١٨[١] .

وهكذا تكون نتائج الطاعة، وهكذا تكون عاقبة الصبر والإنابة، واسمع إلي حلاوة القرآن الكريم وهو يعرض لك هذه الصورة الإيمانية المشرقة ﴿**فلما أسلما وتلة للجبين، وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاد المبين، وفديناه بذبح عظيم ..** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ الصافات ١٠٣ـ١١١

٣ ـ ذرية إسماعيل ـ عليه السلام ـ :

يذكر أهل التاريخ أن الزوجة الأخيرة لإسماعيل ـ عليه السلام ـ واسمها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، هي التي ولدت لإسماعيل أبناءه الإثني عشر رجلاً وهم : نابت بن إسماعيل، وقيدر، وأدبيل، ومبشا، ومسمع، ودوما ، وماس، وأدد ، وطور، ونفيس ، وطما، وقيدمان[٢] .

كما يذكر أهل التاريخ ـ وهم المهم ـ أن الله نشر العرب من نابت وقيدر[٣] ومن هنا نفهم انتساب العرب عامة لإسماعيل عليه السلام، وانتساب النبي ﷺ خاصة لإسماعيل وابيه إبراهيم عليهما السلام، إذ لاإشكال في إنتهاء نسب النبىٰ ﷺ مابين عدنان وإسماعيل [٤] .

وكان النبىٰ ﷺ يعترف، بل يفخر بانتسابه إلىٰ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فيقول : «إن الله اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفىٰ من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفىٰ من بني كنانة قريشاً واصطفىٰ من قريش بني

---

(١) انظر : الظلال ٢٩٩٦، وانظر في كلام أهل العلم في «الذبح العظيم» القرطبي ١٥/ ١٠٧، ابن كثير ٧ / ٢٦

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/ ٣١٤

(٣) المصدر السابق ١/ ٣١٤.

(٤) انظر : طبقات ابن سعد ١/ ٥٨، جوامع السيرة لابن حزم ص ٢، السيرة النبوية للذهبي ص ١، زاد المعاد لابن القيم ١/ ٧١، فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٢٩ .

هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١] .

وبهذا نعلم معنىٰ كون إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبا الأنبياء، فهل أدركت هذا وفقهته ؟

٤ ـ الدروس المستفادة :

١ ـ من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب، فحين ضاقت أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ذرعاً وانقطعت بها الحيل حيث لاماء ولا مرعىٰ في جبال مكة ووديانها أنبع الله لها ولأبنها ماء زمزم، واجتمع الناس حولها .

٢ ـ رؤيا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حق، وجهادهم في ذات الله يستحق الذكر، وهل أعظم من أن يؤمر الأب بذبح ابنه فيسمع ويطيع ؟

٣ ـ وفي قصة الذبح درس آخر يتمثل في صدق إسماعيل وصبره، واستجابته لأمر ربه وأبيه وهو يكتفىٰ بالقول ﴿ **ياأبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ وقد مدحه الله بصدق الوعد فقال : ﴿ **إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً** ﴾[مريم : ٥٤] .

٤ ـ ليس المقصود في الابتلاء ـ سواء كان للأنبياء أم لغيرهم ـ مجرد العنت والمشقة، بل القصد بيان إيمان المؤمنين وفضح المنافقين والكاذبين، قال تعالىٰ : ﴿ **آلم، احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ [العنكبوت : ١، ٢، ٣] .

٥ ـ ومن المعلوم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أشد الناس بلاء، ثم الذين يلونهم، وهكذا وكلما كان إيمان المرء أقوىٰ كانت فتنته أشد، وما يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يمشي في الناس ، ماعليه خطيئة كما أخبر بذلك المصطفىٰ ﷺ[١] .

---

(١) صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٨٩ ، صحيح السيرة النبوية : ابن طرهوني ١/ ١٤٩

(٢) حديث صحيح رواه أحمد وغيره بسند صحيح، انظر : صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٣٣ .

٦ ـ لوط عليه السلام

١ ـ كفر قوم لوط وانحطاط اخلاقهم :

لابد لنا قبل التعريف بقوم لوط وأخلاقهم المنحطة ، أن نتعرف على نبى الله لوط ـ عليه السلام ـ واسم أبيه «هاران»[١] وقد آمن لإبراهيم وصدق به ، كما قال تعالى : ﴿ **فآمن له لوط** ﴾[العنكبوت : ٢٦] وأكرمه الله بالرسالة قال تعالى : ﴿ **وإن لوطاً لمن المرسلين** ﴾[الصافات : ١٣٣] .

أما قوم لوط فكانوا غاية في السفاهة ، ودناءة الخلق ، وضحالة التفكير وكانوا يجمعون إلي الانحطاط الخلقي ، قلة الحياء ، وممارسة الجريمة والمنكرات على مرأى ومسمع ومشهد الآخرين ، قال تعالى : ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾[العنكبوت : ٢٩] أي يزاولون المنكرات علانية في مجالسهم ، كما أضافوا إلى أخلاقهم المشينة التطاول على الأخرين والاعتداء على ابن السبيل ، كما قال تعالى في وصف خستهم ﴿ **وتقطعون السبيل** ﴾ قيل كانوا قطاع طريق ، ومحترفين في الفواحش ، حتى ولو كان ذلك على حساب نسلهم وانقطاع ذريتهم[٢] .

أما الجريمة الشنعاء ، والمصيبة العظمى التي اقترفوها ولم يسبقوا إليها في العالمين قبلهم فهي «جريمة اللواط» وهي جريمة خلقية منكرة ، وطبع لئيم مستقذر

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٩١ ، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٩ ، وتاريخ الأنبياء لمحمد النجار ص ١٢١ ، وقيل إن لوطاً ابن أخت إبراهيم عليهما السلام ، ذكر ذلك القرطبي في إحدى مروياته ١٣/ ٣٣٩ ، ولعله تصحيف في الكتابة وإلا فقد سبق إنه ابن أخيه انظر ص٧٢ .

(٢) حكاه القرطبي ـ جمعاً بين الأقوال ـ في تفسير آية ﴿وتقطعون السبيل﴾ ١٣/ ٣٤١ .

وشذوذ جنسي وبعد عن الرجولة والشهامة، وتشبه بالأنوثة، وممارسة للتخنث، ينأىٰ بنفسه عنها أكارم الرجال وتستنكرها العقول والفطر السليمة، ولهذا ركزت الآيات القرآنية في قصة «لوط وقومه» علىٰ استهجان هذه الفاحشة، أكثر من تركيزها علىٰ فواحش الأقوام الآخرين مع أنبيائهم بل أكثر من تركيزها علىٰ تقوىٰ الله وعبادته[1] .

قال تعالىٰ : ـ وهو يكشف عن هذه الممارسة الجنسية الهابطة ـ ويصف الواقعين بها بالإسراف والجهل : ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون** ﴾[الأعراف : ٨٠، ٨١] .

وقال تعالىٰ في سورة أخرىٰ ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون، أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون** ﴾[النمل : ٥٤، ٥٥] .

ثم ينكر عليهم الباري ـ جل جلاله ـ تجاوزهم في هذه الغريزة عن ما أحله الله لهم من النساء إلىٰ مقارفة الجريمة البشعة وإتيان الذكور، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾[الشعراء : ١٦٥، ١٦٦] .

فهل رأيت أخيٰ الشاب عظم هذه الجريمة، وهل رأيت وقاحة كاللوطية ؟ وهلا تأملت في كفر قوم لوط، والانحطاط الخلقي الذي بلغوه ؟ لعل ذلك ينكشف لك أكثر في نهاية القصة .

---

(١) انظر : د. محمد النجار، تاريخ الأنبياء ص ١٢١

٢ - دعوة لوط وموقف قومه :

دعا لوط - عليه السلام - قومه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، كما كان ذلك دأب الأنبياء - عليهم السلام - قبله مع أقوامهم ، إذ قال لقومه ﴿ **ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[الشعراء : الآيات ١٦١-١٦٤] .

وزاد على ذلك أن نهاهم عن تعاطى ما ذكر الله من الفواحش والآثام ، ذلك أن القوم غارقون في الفاحشة ، متطاولون في الجريمة ، كما أوضحت ذلك آيات سورة الأعراف ، والشعراء ، والنمل - كما سبق ، وغيرها من آيات القرآن الحكيم .

موقف الجحود والعصيان والتطاول والاتهام :

لكن هل ارتدع القوم عن غيهم ؟ وهل أقلعوا عن معصيته ؟ وهل استجابوا لتذكير نبيهم - عليهم السلام - بسوء العاقبة ؟ كلا فلم يستجب له أحد ، ولم يؤمن به حتى ولا رجل واحد منهم[١] ، ولم يتركوا ما عنه نهوا ، بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وزادوا على ذلك بأن هموا بإخراج رسولهم من بين أظهرهم ، وقالوا قولتهم الآثمة ﴿ **أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾[النمل : ٥٦] فقد اعتبروا الطهر والعفاف جريمة تستحق الطرد والإخراج واعتبروا الطهر والعفاف نقمة يستحق صاحبها المطاردة والإنكار؟!

وهكذا تختل الموازين وينقلب الحق باطلاً والمعروف منكراً في مجتمع السافلين وكان الله في عون الأنبياء والمرسلين ، ومن بعدهم من الدعاة والصالحين وهم يواجهون المحنة في كل عصر ، ويتهمهم المجرمون المغرضون

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ١/ ١٩٣ . وقال القرطبي : لم يكن بقرية قوم لو مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه (الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٣٣) .

في أعراضهم كما أتهم من قبلهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والعاقبة للمتقين.

٣ ـ عاقبة الكفر والإعراض وإنحطاط الأخلاق :

وظل نبىٰ الله لوط عليه السلام يحذر قومه سوء العاقبة، ويدعوهم بكل وسيلة تدرأ عنهم العذاب، قال لهم حين هموا بأضيافه من الملائكة ـ عليهم السلام ـ ﴿ **هؤلاء بناتي هن أطهر لكم** ﴾ فلم يستجيبو وخوفهم بالله فلم يستفيقوا ﴿ **فاتقوا الله ولاتخزون في ضيفي** ﴾ وأخيراً بحث عن عقلاء راشدين للإنكار علىٰ قومهم لكن دون جدوي ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾[جزء من الآية هود : ٧٨] .

وحين بلغ العناد نهايته والفساد ذروته تولىٰ الله عقابهم ونجاه نبية ومن آمن معه منهم وأذن لجبريل عليه السلام أن يدخل جناحه تحت قرىٰ قوم لوط، فرفعها من تخوم الأرض حتىٰ أدناها من السماء بما فيها، حتىٰ سمع أهل السماء نهيق حميرهم وصياح ديكتهم ثم نكسوا علىٰ رؤوسهم وأتبعهم الله بالحجارة، قال تعالىٰ : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[1] . وقد اختيرت هذه الحجارة التىٰ رجموا بها، فكانت لاتشابه حجارة الأرض، وقيل مكتوب علىٰ كل حجر اسم من رمىٰ به[2] .

ويقال إن جبريل ـ عليه السلام ـ خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، وإن الله أرسل الحجارة علىٰ من كان خارجاً من القرية[3] .

---

(١) الآيات / ٨٢، ٨٣ من سورة هود، وانظر : تفسير القرطبي لهذه الآيات ٩/ ٨١ .
(٢) المصدر السابق ٩/ ٨٣ .
(٣) المصدر نفسه ١٣/ ١٣٣

٤ ـ الدروس المستفادة :

١ ـ شناعة جريمة اللواط، وسوء عاقبة اللوطية، حتىٰ قال ﷺ «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١) .

٢ ـ أن الناس إذا تبدلت فطهرهم، والمجتمعات إذا غلب الفساد عليهم أصبحت الجريمة أمراً مألوفاً بينهم وأصبحت الفضيلة والحياء أمراً مستغرباً عندهم، لكن ذلك لايغير من الحق شيئاً .

٣ ـ صبر لوط عليه السلام علىٰ قومه ومعالجتهم بكل وسيلة ولكن دون جدوىٰ .

٤ ـ اللجوء إلىٰ الله وحده هو المخرج إذا حلت الأزمات، ولهذا قال لوط ـ عليه السلام ـ لقومه ﴿ **لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾[هود : ٨٠] فقد فُسر الركن الشديد بأنه هو الله سبحانه وتعالىٰ(٢) . وقال عليه الصلاة والسلام «يغفر الله للوط إن كان ليأوىٰ إلىٰ ركن شديد»(٣) .

٥ ـ سقوط الأخلاق سبب لنهاية الشعوب وتدمير الأمم، وضدق الشاعر حين قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت … فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر : صحيح الجامع الصغير ٥/ ٣٦٦ .

(٢) انظر : الفتح ٦/ ٤١٥، وهناك تفسير آخر للركن الشديد بأنهم العشيرة والأول اظهر ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ عليه رحمة الله ـ (المصدر السابق ٦/ ٤١٦) .

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب ولوطاً إذ قال لقومه . . (الفتح ٦/ ٤١٥) .

٧ ـ يوسف عليه السلام

١ ـ نشأة يوسف وموقف إخوته منه :

نشأ يوسف ـ عليه السلام ـ في كنف والده ـ يحبه ويرعاه ويؤثره على غيره من إخوانه لما رأى فيه من علامات النجابة والذكاء، وجمال الخلقة وحسن الخلق، وهو كريم ومن أصول كريمة أيضاً ، فهو سليل أنبياء كرام إذ هو يوسف ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله اسحق ابن نبي الله إبراهيم الخليل ـ عليهم السلام ، ولهذا جاء في صحيح البخاري وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام»[1] .

الحسد وموقف إخوته منه :

ولشدة محبة والده له ، وقلة صبره عن فراقه حسده إخوته على مكانه منه، وقال بعضهم لبعض ـ كما حكى الله تعالى عنهم ـ : ﴿ **ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة** ﴾ [يوسف : ٨] أي جماعة، وكانوا عشرة[2] .

وبدأوا يفكرون في وسيلة يتخلصون فيها من يوسف ـ عليه السلام ـ ليصفو لهم الجو، ويخلوا لهم وجه أبيهم، وانتهى بهم التفكير إلى أن يتظاهروا بمحبة يوسف ويطلبوا من أبيهم أن يأذن له بمصاحبتهم في رحلة برية ليرتع ويلعب معهم ووعدوه بحفظه ورعايته، وأذن الأب مع تخوفه على يوسف ـ عليه السلام ـ حتى

---

(١) انظر : الفتح ٦/ ٤١٧ .

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٣٣١ .

إذا ابتعد الأبن عن أبيه بدأ الابتلاء لويسف عليه السلام، وجعل الأخ منهم يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه وهو لايرىٰ فيهم رحيماً[١] ، فلما كادوا يقتلونه، قال أحدهم لاتقتلوه ، وألقوه في البئر إن كنتم ولابد فاعلين، فامتثلوا للرأي، وعلقوه بحبل (دلو) ثم ألقوه في قعر البئر، وهم يظنون أنهم أنهوه، وماعلموا أن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، ثم جاءوا عشاءً يبكون ينتحلون المعاذير ويتذرعون بالحيل ويقولون لأبيهم : إن الذئب أكل يوسف في غفلة منا، وهم يعلمون أن أباهم غير مصدق لكلامهم ﴿**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**﴾ [يوسف : ١٧].

٢ ـ الابتلاء والامتحان في حياة يوسف عليه السلام :

ـ من قاع البئر إلى بيت عزيز مصر :

وتمضىٰ حياة يوسف عليه السلام وهي مليئة بالمحن والابتلاءات فبعد أن القاه إخوته في البئر وهم يظنون أنه سيكون قبراً له، هيئ الله له رفقة في الطريق تبحث عن الماء فأدلوا دلوهم في هذا البئر، فإذا بيوسف ـ عليه السلام ـ يتعلق به، فلما خرج استبشر به القوم واعتبروه سلعة يحق لهم بيعها والاستفادة من ثمنها وقد كان، ولجهلهم بحقيقة هذا الغلام باعوه بأزهد الأثمان، فاشتراه عزيز مصر، وأمر زوجته بإكرامه والعنايه به، فعاش الغلام في تلك الفترة حياة سعيدة وارفة الظلال، وفي جو آمن مملوء بالرحمة والحب والحنان ولم يكدر صفو هذه الحياة إلا ماأراد الله لنبيه يوسف عليه السلام من محنة أخرىٰ لاتقل عن محنة البئر السابقة لها، وذلك حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وقد تعلقت به وأحبته حباً شديداً، وأعجبها جمال طلعته وحسن هيأته وأغلقت عليه أبوابها ودعته إلىٰ نفسها .

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ٣٣٢ .

مثالية الطهر والعفة في شخصية يوسف عليه السلام :

وهكذا يتعرض يوسف عليه السلام للمحنة مرة أخرىٰ، وتتهيأ له أسباب الفاحشة ودواعيها، فالمرأة هي الداعية وقد تزينت بكل ما تملك، والدعوة في بيت آمن حيث منزل عزيز مصر والأبواب تغلق، فيشتد الأمر علىٰ يوسف عليه السلام، وقد أغلقت الأبواب أمامه إلا باب الحيىٰ القيوم الذي يسمع ويرىٰ، فيلجأ إليه، فيرىٰ من براهينه وآياته ما يزجره عن المعصية ويعينه علىٰ تجاوز هذه المحنة ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾(١) .

وهكذا يعتذر يوسف ـ عليه السلام ـ عن مقارفة الفاحشة ويرفض عمل المنكر ويتذكر رقابة الله عليه وهو المنقذ له في الأزمات ـ وقد أنقذه من غيابة الجب ـ ، كما يتذكر كذلك فضل سيده عليه وإكرامه له فلا يليق به أن يخونه في أهله وهو المؤتمن في بيته ﴿ **قال معاذ الله إنه ربي ـ أي سيدي ـ أحسن مثواي إنه لايفلح الظالمون** ﴾[يوسف : ٢٣] .

يوسف عليه السلام في السجن :

شيء عجيب أن يتهم الأبرياء، أو يسجن الأنبياء، ولكن هكذا يفعل الظالمون وكذلك يُبتلىٰ المؤمنون، وهذه محنة ثالثة في حياة يوسف عليه السلام، والأدلة تنطق ببراءته ويهيء الله له شاهداً من داخل البيت فيدلل علىٰ عفته وطهارته بقميصه الممزق فإن كان مُزق من الأمام «من قُبُلٍ» فهي صادقة وهو كاذب لإن ذلك يعنىٰ أنها دافعت عن نفسها حينما هم بها، وإن كان القميص قد تمزق من خلفه «من دُبُرٍ» فهي كاذبة في دعواها، وأثار تمزيق الثوب من خلف وهو هارب

---

(١) سورة يوسف : الآية ٢٤ وقد اختلفت أقاويل العلماء في تحديد المقصود بالبرهان الذي رآه يوسف عليه السلام، وقد جمع الطبري بينها فاليراجع عند تفسير الآية .

عنها تؤكد صدقة وبراءته، فلما رأوا القميص قد مزق من الخلف تأكد لهم براءة يوسف عليه السلام مما أتهم به .

إذن فلماذا يسجن يوسف عليه السلام وقد ظهرت براءته ؟ هذا سؤال كبير يدور في الذهن كلما قرأ المسلم قصة يوسف عليه السلام ، أو سمع عن أمثال يوسف ممن يسجنون ظلماً وعدواناً ! !

وتزداد الحيرة والغرابة حين نعلم أن الذين سجنوا يوسف عليه السلام قد تبين لهم من الآيات والبراهين القاطعة ما يبرئ ساحته، وقد قال الله عنهم ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾[يوسف : ٣٥] فقد القميص من دبر، وشهادة الشاهد وحز أيدىٰ النساء وقلة صبرهن عن لقاء يوسف ـ عليه السلام ـ كلها أدلة للبراءة[١] .

ومع ذلك يسجن يوسف عليه السلام حتىٰ لاتنشر فضيحة امرأة العزيز بمراودتها يوسف عن نفسه عند عامة الناس، وهكذا حين يغيب العدل ويسود الظلم بين الناس يستهان بحق الأبرياء في سبيل الحفاظ علىٰ سمعة الكبراء؟!

ولكن يبقىٰ أن الذي يدخل السجن متهماً مظلوماً يخرج منه بعد حين عزيزاً برئياً وهذا ما حصل ليوسف عليه السلام ـ كما سيتضح لك في نهاية القصة بإذن الله .

٣ ـ عاقبة الصبر :

هذه المحن والابتلاءات التي مرت بحياة يوسف ـ عليه السلام ـ تحملها بالإيمان وعالجها بالصبر، فماذا يتوقع أن تكون النتيجة والعاقبة ؟

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ١٨٦

الخروج من السجن بريئاً :

وكما حفظ الله يوسف ـ عليه السلام ـ واستخرجه من البئر سليماً معافا، فقد أخرجه الله كذلك من السجن بريئاً عزيزاً، ولا شك أن ذلك من عواقب الصبر فلم يقلق الصديق عليه السلام ولم يسخط لقدر الله وهو يعلم أنه على الحق وغيره على الباطل، بل دفعته هذه الثقة بالله إلى أن يدعو غيره للإيمان وينهاهم عن الشرك وعبادة الأوثان، فقال لمن كان معه في السجن ﴿ **ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾[يوسف : ٣٩] .

ولقوة صبره ـ عليه السلام ـ رفض الخروج من السجن حين جاءه الداعي من الملك إلا بعد أن يعلم الناس براءته ويشهد الخلق على عفته وطهارته ﴿ **قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾[يوسف: ٥٠] وهنا لم تجد امرأة العزيز بداً من الاعتراف بالحق فقالت: ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾[يوسف : ٥١] .

ومن هنا تعلم ـ أخي الشاب ـ لماذا عجب محمد ﷺ من صبر يوسف ـ عليه السلام ـ حين قال: «ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»(١) أي لأسرعت في الخروج من السجن ولما قدمت طلب البراءة، وهذا نوع من التواضع من النبي محمد ﷺ وإلا فهو من الصابرين، لكن فيه تأكيد على صبر وتحمل يوسف عليه السلام .

على خزائن الأرض :

ولم تكن هذه وحدها هي عاقبة الصبر، بل خرج يوسف عليه السلام من السجن ليكون مسؤولاً ومؤتمناً على خزائن الأرض ويقول بكل ثقة ﴿ **إني حفيظ**

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه ـ انظر : فتح الباري ٦/ ٤١١ .

أمين﴾ وهل يصلح لسياسة المال وتدبير معاش الخلق إلا الحفظة الأمناء ! وهل أعدمت الشعوب وضاعت حقوق الخلق إلا حينما تولاها الخونة الأدعياء؟ وكذلك يصنع الصبر فينقل أصحابه من حالة لايستطيعون فيها التصرف في ذوات أنفسهم - وهم سجناء - إلى مرتبة يملكون فيها التصرف بأمور الخلق وهم سادة طلقاء .

صبران جميلان يلتقيان :

وكذلك يلتقي صبر يعقوب - عليه السلام - بعد رحلة شاقة من الهم والضيق وجدب الأرض ولوعة الفراق ، وصبر يوسف - عليه السلام - بعد رحلة شاقة بين ظلمات الجب ، وظلمات السجن ، وشدة الغربة ، وألم التهمة ، يلتقيان بإذن الله ليجمع الشمل ويرأب الصدع ويعود الصفا وتنتهي في بيت يوسف وفي ملكه - وهو الصابر الحليم - حالة الفرقة والشحناء ، ويخر الأبوان سجداً لله شاكرين ويطلب الأبناء المخطئون العفو والمغفرة ، ويتذكر الصديق مع أبيه رؤياه في صغره - ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حق - ويقول هذا تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقا ، ويذكر يوسف عليه السلام إخوته بعاقبة الصبر وجزاء الصابرين فيقول : ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين﴾[يوسف : ٩٠] .

الدروس المستفادة :

١ - حفظ الله تعالى لأوليائه المتقين فقد أخرج يوسف عليه السلام من قاع الجب «البئر» وعصمه من فتنة النساء ، واستخرجه من السجن عزيزاً عفيفاً بعد أن مكث فيه بضع سنين .

٢ - شدة صبر الأنبياء - عليهم السلام - على البلوى ، واستعانتهم بالله على الشدائد وعظيم ثقتهم بالله ، و الرضا بما يكتب ويقدر .

٣ - علم يوسف - عليه السلام - وحكمته وحسن تدبيره حيث أنقذ الله به

مصر من مجاعة محققة، وسدت حوائج أهلها، ووفدت إليها الركبان من البلاد المجاورة .

٤ ـ ومن خلال محاورة يوسف عليه السلام ـ لإخوته حين قدموا عليه يظهر رجاحة عقله، وحسن منطقة وقوة حجته حيث استطاع أن يؤي إليه أخاه في البداية ثم استطاع جمع شمل أهله كلهم في النهاية .

٥ ـ كرم يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ حيث عفوا عن الخطأ واستغفروا للمخطئين، وكذلك تكون أخلاق الأنبياء عليهم السلام ومن سار على هديهم إلى يوم الدين .

٦ ـ أن رقابة الله تعالى والشكر لأنعمه والخوف من عقابة ضمان بإذن الله من الوقوع في الفواحش مهما كان الداعي، وفي موقف يوسف عليه السلام من امرأة العزيز نموذج للصدق مع الله، والعفة عن مقارفة الفاحشة التي حرم الله .

٨ ـ شعيب عليه السلام

١ ـ كفر قومه وتطفيفهم المكيال والميزان :

سبق الحديث أن شعيباً عليه السلام أحد الأنبياء الأربعة من العرب[١] ويقال أن شعيباً عليه السلام خطيب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لفصاحته وبلاغته[٢] .

أما قومه «مدين» فكانوا غاية في السوء جمعوا إلى الكفر بالله والإشراك به حيث كانوا يعبدون الأيكة ـ وهي شجرة من الأيك حولها غيظة ملتفة بها . جمعوا إلى ذلك الفسوق والطغيان والإعتداء على حقوق الآخرين، فقد كانوا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويأخذون جزءاً من أموالهم من مكوس[٣] وغيرها دون مبرر، وهم أول من سن ذلك[٤] .

كما كانوا يبخسون الناس في الكيل والوزن فلا يوفونهم حقوقهم، أما هم فيأخذون لأنفسهم الحق وزيادة، وإلي ذلك كله أشار القرآ الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ **وإلي مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين، ولاتقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ..** ﴾[الاعراف : ٨٥، ٨٦] .

---

(١) راجع قصة هود وصالح عليهما السلام .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٠١ .

(٣) المكس هو الضريبة التي يأخذها الماكس وهو العشّار (النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٤٩) .

(٤) البداية والنهاية ١/ ٢٠٢ .

٢ ـ دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ وأسلوبه في الدعوة :

يمكننا أن نكرر القول بأن أساس دعوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ جميعاً تأكيد الوحدانية لله في هذا الوجود، وإخلاص العبادة له، وشعيب عليه السلام واحد من هؤلاء فلا غرابة أن يقول لقومه ﴿ **ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾[الأعراف: ٨٥] .

ومع ذلك فقد اجتهد عليه السلام في دعوة قومه بكل ما أوتي من وسيلة، وحاول علاج انحرافاتهم في أكثر من موقف، فقد نهاهم عن قطع الطريق بشقيه الحسي وذلك بعدم التعرض للناس والاعتداء على أموالهم وحقوقهم، أو المعنوي وذلك بعدم الإفساد في الأرض واضلال الناس وإشاعة المنكرات والفواحش بينهم ﴿**ولاتقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً** ﴾[الأعراف : ٨٦] .

وذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم بتكثيرهم بعد القلة ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم** ﴾ .

وحذرهم في الوقت نفسه من عذاب الله ونقمته إن لم يمتثلوا ويتعظوا وفي من قبلهم من الأمم لهم عبرة ﴿**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ الأعراف : ٨٦ .

ثم يلفت شعيب ـ عليه السلام ـ أنظار قومه إلي أن ما هم فيه من أكل أموال الناس بالباطل وذلك عن طريق التطفيف في الكيل والوزن عمل غير صالح وإن خيل لهم الغنى من خلاله، وبقية الله من الرزق الحلال، وما فضل لهم من الربح بعد وفاء الكيل والوزن خير وأبقى وإن خيل لهم إنه قليل ، لكن ذلك يحتاج إلى إيمان بالله وثقة بما عنده ﴿ **بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾[هود : ٨٦]. ويرشدهم إلى أن يكون قصدهم في كل ما يعملون ابتغاء وجه الله، لامن أجل أن يراهم هو أو يراهم غيره، فلا هو ولا غيره عليهم بحفيظ ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ [هود : ٨٦] .

ويضرب لهم شعيب عليه السلام من نفسه مثلاً، ويجعل من شخصه قدوة حسنة تؤكد لهم إمكانية الإستقامة على منهج الله، وأثر الحياة السعيدة حينما يستغنى المرء بما أحل الله وينفي أن يكون هناك تناقض بين ما يدعوهم إليه وما يفعله هو، فيقول : ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلي ما أنهاكم عنه** ﴾ [هود : ٨٨] .

وشعيب عليه السلام بعد هذا كله لايريد من دعوته لهم مالاً ولاجاهاً ولاسلطاناً، مثله مثل سائر الأنبياء والدعاة وا لمصلحين الذين يريدون الخير لأمتهم، حتى وإن كان ذلك علي حساب راحتهم ومصالحهم، ويفوضون أمرهم لخالقهم، وكأنه يُعبِّر عن هؤلاء إذ يقول : ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

وشعيب ـ عليه السلام ـ كذلك لايستعجل عقوبة الله عليهم بل يفتح لهم باباً للإستغفار وفرصة للتوبة والندم على فعل القبائح، ولكن هيهات، وهل ينفع اللئيم شيء من كريم الخصال ؟ ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود** ﴾[هود : ٩٠] .

٣ ـ موقف قومه واستهزاؤهم به :

ومع كل أسف فلم يكن موقف مدين من نبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ مشرفاً وقد بلغ كبرهم وعدم اهتمامهم إلى أن يقولوا له : ﴿ **ما نفقه كثيراً مما تقول** ﴾ [هود: ٩١]. أي لانفهمه ولا نتعقله لأنا لانحبه ولانريده، وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه[١] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ١/ ٢٠٤ .

سخرية وسفاهة :

وتبلغ سخريتهم وسفاهتهم إلى أن يتعرضوا لصلاة شعيب - وكان كثير الصلاة - بالاستهزاء فيقولوا : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء** ﴾[هود : ٨٧] . وكأنهم يقولون : ما علاقة صلاتك بديننا وعقائدنا التي ورثناها عن أبائنا جيلاً بعد جيل، وما علاقة صلاتك بأموالنا وتجارتنا التي من حقنا أن نفعل فيها ما نشاء من تطفيف ومكوس؟[١] .

وقولهم : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ على سبيل الاستهزاء والسخرية .

هل يليق هذا المنطق ؟

بل يصل سوء منطق السفهاء إلي أن يتهددوا نبي الله بالرجم، وهل تعتبر الدعوة إلى الله جريمة يستحق صاحبها الرمي بالحجارة ؟ لقد قال المجرمون لشعيب عليه السلام ﴿ **ولولا رهطك** - أي عشيرتك وقبيلتك فينا - **لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾[هود : ٩١] .

التهديد بالنفي :

وتستخدم مدين مع شعيب عليه السلام أسلوباً آخر لايقل سوء عن سابقه وهم يهددونه والمؤمنين معه بالنفي والخروج من قريتهم، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، من الكفر والضلال، وليس اختيار أحد الأمرين بأحسن حالاً من الآخر، لكنه التحدي والتضييق والمكابرة والعناد ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا، قال أو لو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ..** ﴾ [الأعراف : ٨٨، ٨٩] .

---

(١) انظر : منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (شعيب) الجزء الثاني ص ١٠٢ .

السحر تهمة قديمة :

وإذا أعجزت الكفرة الحيل، وباءت محاولاتهم بالفشل اتهموا الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - بتعاطي السحر ﴿ **قالوا إنما أنت من المُسحَّرين، وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين** ﴾ [الشعراء : ١٨٥، ١٨٦] .

ولم يكن شعيب - عليه السلام - ساحراً أو مسحوراً ، وقومه يعرفون تاريخه ويعرفون صدقه وفضله واستقامته لكنهم يتهربون من مواجهة الحقيقة البينة بمثل هذه الإدعاءات المتهافتة(١) .

عقبى الجحود والإعراض :

وما زال نبي الله شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى الله، ويخوفهم عقابه، ويقول لهم ﴿ **ياقوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وماقوم لوط منكم ببعيد** ﴾(٢) ولكن القوم مصرون على الكفر والعناد ومستهترون بالنبي والعقاب وهل يقول عاقل ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين، فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾[الشعراء ١٨٦، ١٨٧] .

بين إصرارين :

وعندما أصروا على كفرهم وفسادهم أصر شعيب والمؤمنون معه على إيمانهم والثبات على الحق الذي رضيه الله لهم وقالوا : ﴿ **قد أفترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ،**

---

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، محمد سرور ٢/ ١٠١ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٩، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ قيل في الزمان وقيل ليسوا عنكم ببعيد في المحلة والمكان، وقيل في الصفات والأفعال القبيحة، قال ابن كثير - عليه رحمه الله - والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لازماناً ولا مكاناً ولا صفات (البداية والنهاية ١/ ٢٠٤) .

وسع ربنا كل شيء علماً، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[الأعراف : ٨٩] .

والمعنى : ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وأنت خير الحاكمين، لعلمك بما يقع به التخاصم ومعرفتك بالظالم[١] .

وماذا بعد الحوار والنصح والإرشاد ؟

هنا انتهت فرص الحوار، ولم يعد يجدي مع مدين نصح ولا إرشاد وقد بذل نبي الله وسعه واستفرغ جهده، ولم يبق إلا أن يحل بهم ما حل بالأمم الكافرة قبلهم ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾[الكهف : ٥٩] .

ثم التفت إليهم شعيب ـ عليه السلام ـ وكأنه يلقى عليهم آخر موعظة قبل العذاب ويقول : ﴿ **وياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب** ﴾ [هود : ٩٣] .

عذاب الرجفة أو الصيحة ، أو الظلة لماذا ؟

وصدق وعد الله ووعد نبيه فيهم، وجمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر الجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ففي سورة الأعراف أرجفوا بنبي الله وأصحابه وتوعدهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ فقابل

---

(١) انظر : تفسير المنار ٩/ ٩ عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ٢/ ١١٢ .

الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب للسياق .

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والإستهزاء والتنقص ﴿أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ فناسب أن يذكر «الصيحة» التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم .

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقريباً إلى ما إليه رغبوا فإنهم قالوا : ﴿إنما أنت من المسحرين، وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون﴾ قال تعالى وهو السميع العليم : ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ .

هكذا نقل الحافظ ابن كثير[1] ـ عليه رحمة الله ـ الجمع بين ما ورد في السور والآيات ، وهو كلام نفيس فافهمه وأعقله أيها الفطن الحريص .

الدروس المستفادة :

١ ـ عاقبة الصبر والإيمان النصر والنجاة من العذاب، وعاقبة الظلم والطغيان الهلاك والخسران، والعاقل من يسعى للعاقبة الحميدة ويتجنب الهلاك والخسران.

٢ ـ مدة الظالم في الأرض قصيرة وإن بدت وكأنها طويلة، وحياة المفسدين في الأرض شقاء وتعاسة وإن تصوروا أنهم يتمتعون بالسعادة والرخاء، ذلك

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٠٥، ٢٠٦ .

وعد حق وكلام صدق ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾[الأعراف : ٩١، ٩٢] .

٣ ـ اتفاق كفار الأمم على سوء المنطق مع أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ فكما قال كفار مدين لشعيب عليه السلام ﴿ ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي أذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ [فصلت : ٥] .

٤ ـ شعيب ـ عليه السلام ـ من قبيلة مدين، ولذا عده الله تعالى «أخا» لهم فقال: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ ولكنهم حين كفروا وعبدوا الأيكة لم يصبح «أخاَ» لهم، فلم تُذكر الأخوة في قوله تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ فتأمل أخوة الدين ورابطة العقيدة وتقديمها على أخوة النسب ورابطة القبيلة، وتأمل الدقة والبراعة في تعبير القرآن الكريم ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

٥ ـ وقصة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه تؤكد لنا أن كل مال اكتسبه صاحبه من الحرام كالربا والمكوس، أو التطفيف في الكيل والوزن أو السرقة من الآخرين، كل ذلك وما شابهه من معاملات محرمة لاتغنى أصحابها في الدنيا ولا تنجيهم من عذاب الله في الآخرة وقد يعجل الله لهم العقوبة في الدنيا حتى يكونوا عبرة للمعتبرين ودرساً بليغاً للمعاندين .

---

(١) وقف ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ عند هذا الفرق في التعبير بين الأيتين، ورد على من زعم أن أصحاب الأيكة أمة أخرى ـ غير أهل مدين ـ ثم ساق نحواً مما نقلت عنه في سبب ذكر الإخوة في موضع دون الآخر، ثم قال: وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة (البداية والنهاية ١/٢٠٦) .

٩ ـ موسى عليه السلام

١ ـ إن فروعون علا في الأرض :

يُطلق فرعون على كل من ملك مصر من العمالقة[١] . وفرعون الذي كان في وقت موسى عليه السلام ، ويقال ان اسمه «الوليد بن مصعب» لم يكن من فراعنة مصر أشد غلظة ولا أقسى قلباً ولا أسوأ ملكاً لبني إسرائيل[٢] منه[٣] ، وقد طال عمره وزادت مدة حكمه فيهم .

وقد علا وتجبر ، وطغي وتكبر ، وبلغ من علوه أنه استذل الناس واستضعفهم وقسمهم إلي أصناف ، فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ، وصنف يزرعون ، ومن لم يجد له عملاً ألزمه بدفع مال (جزية) مقابل ذلك ، ليس ذلك فحسب بل بلغ به الأمر في إذلال بني إسرائيل ـ وهم خيار أهل الأرض في وقته[٤] أنه كان يذبح أبناءهم ويستبقي النساء فقط[٥] . قال الله تعالى في ذلك كله ﴿**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين**﴾[القصص : ٤] .

---

(١) روح المعاني ٧/ ١٧ .

(٢) بنو إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ، وموسى عليه السلام منهم (البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٥٧) .

(٣) الطبري ١/ ٣٨٧ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٥٧ .

(٥) قال أهل العلم أن الحامل لفرعون على هذا أنه بلغه أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرون عن إبراهيم من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه . . وقيل بسبب الرؤيا التي كان رآها فرعون في منامه كان ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل فانزعج منها وجمع السحرة والكهنة وسألهم عن تأويلها (البداية والنهاية ١/ ٢٥٧) .

ولم يقف طغيان فرعون وفساده عند هذا الحد، بل ادعىٰ الربوبية أخزاه الله ﴿ **فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[النازعات: ٢٤] .

كما ادعي الألوهية قبحه الله حين قال: ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ [القصص: ٣٨] .

وبلغ به الغرور أن استهزأ برسول الله موسىٰ عليه السلام واعتبر نفسه خيراً منه حين قال : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولايكاد يبين** ﴾[الزخرف: ٥٢] .

وهكذا استخف فرعون قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين .

٢ ـ نشأة موسى في بيت فرعون ورعاية الله له :

تعمد فرعون قتل أبناء بني إسرائيل لأنه بلغه أن غلاماً منهم سيولد وسيكون هلاك ملك مصر علىٰ يديه، فانزعج لذلك وأمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام، وزيادة في الحرص وحتي لايفلت منهم أي مولود جعل نساء يتابعن كل حامل حتي تلد فيقتلن ولدها، وربما عذبت الحامل حتىٰ تضع ولدها أو يقتل دونها، وأكثر فرعون من القتل حتىٰ قال له أصحابه نخشىٰ أن يفنىٰ بنو إسرائيل إذا مات كبارهم ولم يوجد صغار يخلفونهم، فلا يكون لفرعون وحاشيته خدم يقومون بأعمالهم، فأمر فرعون بقتل الأبناء سنة وتركهم سنة، فولد هارون ـ أخو موسىٰ ـ عليهما السلام في السنة التي لايقتل فيها فسلم، أما موسىٰ عليه السلام فشاء الله أن تكون ولادته في السنة التي يقتل فيها الأبناء ، ولهذا حزنت أمه حزناً شديداً حين حملت به خوفاً عليه من فرعون وملائه، لكن الله تعالىٰ أخفىٰ ولادتها عن القوم المجرمين فوضعته خفية، ومازال الخوف يلاحقها حتىٰ أوحي إليها أن ترضعه فإذا خافت عليه فلتضعه في صندوق ثم تلقي به في البحر وسيحفظه الله ويرده إليها سالماً ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزني**

إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[القصص : ٧] .

واستجابت الأم المسكينة لأمر الله وفوضت أمرها إليه والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

ولك أيها النشئ المسلم أن تعجب من قدر الله وقدرته حين تعلم أن أمواج البحر بدأت تقذف تابوت (صندوق) موسىٰ عليه السلام ذات اليمين وذات الشمال حتىٰ أوصلته إلىٰ بيت فرعون، وكأن الله تعالىٰ أراد أن يظهر عجز فرعون وضعفه أمام قوة الله تعالىٰ وقدرته، فإذاكان فرعون يقتل الغلمان من أجل هذا الغلام، فها هو الغلام يولد ويسلم من القتل رغم المتابعة الدقيقة فإذا سلم وصل إلىٰ بيت فرعون دون عناء أو بحث، فهل يستطيع الملك الطاغية أن يقتل غلاماً ما زال في المهد ؟ كلا وعناية الله تحيط به، ورعايته سبحانه تتولاه، كيف وقع ذلك ولماذا لم يقتل فرعون الغلام ؟ الجواب عن ذلك باختصار أن الله تعالىٰ قدّر أن يقع الغلام في يد زوجة صالحة لفرعون وكانت لاتلد، فأوقع الله في قلبها حب هذا الغلام، وطلبت من فرعون أن يعفيه من القتل لتقر عينها به، ففعل وهو لايدري عن المستقبل .

ليس ذلك فحسب ، بل إن الغلام لم يقبل ثدياً غير ثدي أمه، وحرم الله عليه المراضع، وكانوا يبحثون له عن مرضعة يقبل ثديها ويرضع من لبنها حتىٰ وصلوا إلىٰ أمه عن طريق اخته، وهم لايشعرون أنها أمه ولا أن تلك أخته، فقبل الغلام ثديها، فطلبوا منها أن ترضعه ويدفعوا إليها مقابل ذلك أجراً يكافؤها فقبلت الأمر وتذكرت وعد الله لها وأيقنت بحفظة ورعايته، وكذلك يحفظ الله المؤمنين ويبطل كيد الكافرين . . واستمع بقلب خاشع إلي طرف من هذه القصة العجيبة في قوله تعالىٰ ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، وقالت إمرأة فرعون قرت عين لي ولك لاتقتلوه . .** ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **فرددناه إلى كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾[القصص : ٨-١٣] .

٣ ـ شعور موسى عليه السلام بآلام الناس ومعاناتهم في ظل حكم فرعون وعمله على نصرة المظلوم :

عاش موسىٰ عليه السلام في بيت فرعون يبصر مظاهر الترف ويتقلب في النعيم، ويرىٰ مباهج الملك والسلطان، ولكن ذلك كله لم يكن ينسيه ما في بيت فرعون من ظلم وطغيان وترف وفساد، ولم تكن هذه النعمة التي يعيش بها كذلك لتنسيه أحوال البائسين المظلومين وخاصة من بني إسرائيل، لاسيما وقد تعلقوا به لقرابته منهم ولمكانته في المجتمع، فكان يشعر بآلامهم وحرمانهم، ويعمل علىٰ نصرة المظلوم منهم، وذات يوم دخل المدينة فوجد فيها رجلين يتسابان ويتشاجران، وقد أوشكا علىٰ القتال، أحدهما إسرائيلي والآخر فرعوني، فلما رأه الإسرائيلي فرح به واستنصره علىٰ خصمه، فاقترب موسىٰ عليه السلام ليفصل بينهم ولينتصر للمظلوم من ظالمه فتناول موسىٰ عليه السلام الفرعوني بيده وشاء الله أن تكون ضربة قاضية أنهت حياة الفرعوني فحزن موسىٰ عليه السلام لأنه لم يقصد قتله واعتبر ذلك من نزغ الشيطان فاستعاذ بالله منه وطلب الرحمة والمغفرة .

وفي يوم آخر خرج مرة للمدينة وهو خائف يترقب مما وقع له مع الفرعوني، فإذا هو يبصر صاحبه الإسرائيلي مرة أخرىٰ في معركة ثانية مع فرعوني آخر إذا به يستغيث موسىٰ فغضب موسىٰ من صنيعه وكثرة مشاجراته واتهمه بالغواية والضلال، ومع ذلك اقترب منه ليعينه علىٰ خصمه فظن الإسرائيلي أنه يريد ضربه والانتقام منه ﴿**قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين**﴾[القصص : ١٩] .

فوقعت هذه الكلمة موقعها في نفس الفرعوني وقد كان فرعون ومن حوله يبحثون عن قتيل الفرعوني السابق ولم يجدوا من يدلهم عليه ففرح هذا الفرعوني بإفشاء السر عن طريق الإسرائيلي فذهب إلىٰ فرعون وأخبره الخبر

فاستشاط غضباً وتذكّر ما أخبره به المنجمون من هلاكه على يد أحد بنى إسرائيل، وبعث زبانيته لقتل موسى، ولكن الله تعالى هيأ له من أعلمه الخبر إذ جاء إليه رجل من آل فرعون مسرعاً، وقال إن القوم يريدون قتلك والقضاء عليك ونصحه بالخروج من المدينة قبل أن يحيط به المجرمون فقبل نصيحته وفكّر في مكان يتوجه إليه، فإلى أي مكان ياترى سيوجهه الله ؟ وقبل أن تعلم ذلك استمع إلى هذه المحاورة اللطيفة التي تؤكد لك لطف الله بعباده المؤمنين، وإخلاص الناصحين، يقول الله تعالى ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٢٠، ٢١] .

٤ ـ موسى في أرض مدين ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ :

اختار الله لموسى عليه السلام أرض مدين ـ وهي بلاد واقعة حول خليج العقبة[١]، بين الشام والحجاز ـ ليهاجر إليها فاراً بنفسه من طلب فرعون وملائه، ولم ينس موسى ـ عليه السلام ـ إن الله معه في كل لحظة فكان يدعوه بطلب الهداية والتوفيق ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾[القصص : ٢٢].

وعلى الرغم من كون هذه الرحلة شاقة ومتعبة لموسى عليه السلام إذ لم يتزود لها ولم يدر ما نهايتها فلم يكن الله ليضيعه، و قد استجاب دعاءه وهداه إلى أهل بيت علم وإيمان، فما هي قصة هذه الرحلة وما هي أبرز صفات موسى فيها؟

لقد مر موسى عليه السلام بقوم ينزعون الماء من البئر ويسقون أنعامهم ومواشيهم ويتسابقون على الماء ويتنافسون عليه فأبصر ـ عليه السلام ـ دونهم

---

(١) د. النجار : تاريخ الأنبياء ص ١٨٩ ، والذي نقله ياقوت في معجمه عن ابي زيد أن «مدين» على بحر القلزم محاذية لتبوك، وقيل بين وادي القرى والشام، وقيل بين المدينة والشام (معجم البلدان ٥/ ٧٧) .

امرأتين ترعيان غنماً لهما وتحبسانها حتى لاتختلط بغنم الآخرين فسألهما موسى ـ عليه السلام ـ عن حالهما فأخبرتاه أنهما ترعيان الغنم لأن والدهما شيخ كبير وليس له أبناء يقومون بهذه المهمة وأنهما تنتظران حتى يذهب الرجال لئلا تختلطا بهم ويسقى الأقوياء حيث لاقوة لهما لمنافستهم فأعجب موسى ـ عليه السلام ـ بمنطقهما واشفق عليهما، وتقدم للبئر وسقى لهما ويقال إنه رفع صخرة عظيمة كانوا يضعونها فوق البئر وحده وكان لايرفعها إلا العدد من الرجال، وأعجبت الفتاتان بقوة موسى عليه السلام ونصرته لهما فأخبرتا أبيهما بما حصل منهما، فطلبه[1]، فجائت احدى الفتاتين تمشى على استحياء وقالت: ﴿**إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ وإنما صرّحت له بذلك لئلا يوهم كلامها ريبة وهذا من تمام حيائها وصيانتها[2].

فاستجاب لها موسى عليه السلام وطلب منها أن تكون خلفه فإذا ضل الطريق نبهته بحجر صغير تقذفه فيتجه موسى حيث تشير بالحجر حتى وصل بيت أبيها، فلما وصل موسى إلى هذا الشيخ وارتاح له قص عليه قصة فراره من فرعون، فطمأنه وقال: ﴿**لاتخف نجوت من القوم الظالمين**﴾.

القوة والأمانة:

ثم إن إحدى البنتين طلبت من أبيها أن يستأجره لرعي غنمهم ووصفته بالقوة والأمانة ﴿**ياأبت استأجرة إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾[القصص: ٢٦].

وهكذا انكشفت بعض صفات موسى ـ عليه السلام ـ وكان موسى قوياً فتياً وصادقاً أميناً، وأراد الأب أن يتأكد من وجود هاتين الصفتين فقال لابنته

---

(١) يقال أن موسى لما سقى لهم وتولى إلى الظل قائلاً ﴿**رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير**﴾ اسمع الفتاتين فأسرعتا إلي أبيهما لتخبراه وليجزيه فكان ماكان (البداية والنهاية ١/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) البداية والنهاية ١/ ٢٦٤.

وما علامة ذلك فأخبرته بقوته في رفع الحجر والسقي لهم، وأمانته وعفته حين مشى أمامها ولم يشأ أن يبصر شيئاً من عورتها فأعجب الأب بموسى وتعلق به قلبه وعرض عليه الزواج بإحدى البنتين مقابل رعية لغنمهم لمدة ثمان سنين وإن أتم عشراً فمن عنده، فقبل موسى عليه السلام وتزوج المرأة الصالحة ابنة الرجل الصالح، وأتم موسى عليه السلام أكمل الأجلين - عشر سنين فاكتملت لموسى صفة الوفاء مع صفتي القوة والأمانة. . وتلك بعض صفات موسى عليه السلام وأكرم بصفات الأنبياء عليهم السلام، وأنعم بأهل المروءة والشهامة والإباء.

٥ - رسالة موسى وهارون :

لما قضى موسى الأجل في أرض مدين بدا له الرجوع إلى أرض مصر موطنه وموطن أهله، واستصحب معه أهله وسار في الطريق راجعاً، وشاء الله أن يضل الطريق في ليلة باردة مظلمة وبينما هو يتفكر في الطريق أبصر على بعد ناراً فقال لأهله انتظروا لعلي آتيكم بخبر منها فنستدل به على الطريق أو أتي لكم بجزء منها تصطلون وتستدفئون، ووصل موسى - عليه السلام - إلى النار وكانت المفأجأة فهي ليست ناراً كما تصور بل هي أنوار، وكلما اقترب منها ابتدعت عنه حتى شك فيها وخاف منها، حتى سمع صوتاً من السماء يناديه ﴿**إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾[طه : ١٢-١٤].

الآيات والرسالة :

لقد أتاهم منها بخبر وأي خبر، ووجد عند النار هدى وأي هدى، واقتبس منها نوراً وأي نور ؟ وكانت بداية رسالة موسى عليه السلام، وبداية وحي الله تعالى له، ومقدمة لرسالته إلى فرعون وقومه، وحتى يطمئن موسى ويعلم صدق نبوته. قال الله له ﴿**وما تلك بيمينك ياموسى**﴾ وكانت معه عصا - قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي، قال الله له : ﴿**ألقها ياموسى**

فألقاها﴾، فانقلبت حية تسعىٰ، فخاف موسىٰ ـ عليه السلام ـ وفرَّ منها فناداه ربه جل جلاله **﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾** [طه: ٢١] وعادت الحية عصا كما كانت فاطمأن موسىٰ، ثم أراد الله أن يريه آية أخرىٰ تشهد بقدرة خالقه وتدل علىٰ نبوته، فأمره بأن يدخل يده في جيبه ثم أمره بإخراجها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير برص ولا بهق، قال تعالىٰ **﴿فذانك﴾** يعني العصا واليد(١) **﴿برهانان من ربك إلى فرعون وملأه﴾** [القصص: ٣٢] يعني علامة علىٰ صدق نبوتك.

دعوة موسى ونبوة هارون :

فلما تيقن الأمر لموسىٰ عليه السلام أحس بعظم المسؤولية وثقل الرسالة فدعا ربه أن يعينه بأخيه هارون، فهو أفصح منه لساناً، وهو يخشىٰ من القوم بعد أن قتل رجلاً منهم وناجىٰ ربه قائلاً: **﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾**[القصص: ٣٣، ٣٤].

وقال كذلك: **﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً﴾**[طه: ٢٩-٣٥].

واستجاب الله له وكانت له عند الله وجاهة **﴿وكان عند الله وجيهاً﴾**[الاحزاب: ٦٩]. وكلّف الله أخاه هارون بالرسالة كذلك **﴿قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾**[القصص: ٣٥]. وقال تعالىٰ: **﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾**[مريم: ٥٣] وقال تعالىٰ مؤكداً رسالة موسىٰ وهارون كذلك **﴿وإذ نادى ربك موسى أن أت القوم الظالمين.. إلىٰ قوله فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل..﴾**[الشعراء: ١٠-١٧].

---

(١) انظر: الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ٢٨٥.

وهكذا أنعم الله بالرسالة على موسى وهارون وكانا مشعل هداية للناس أجمعين وخاصة لبني إسرائيل لكن هل تم ذلك بيسر وسهولة، وهل استجاب فرعون لدعوتهم وأطلق سراح الناس ليستمعوا إليهم؟ لا ولم يكن ذلك بالأمر اليسير كما سترى .

٦ - بين موسى وفرعون :

حين أجاب الله دعوة موسى وأمده بأخيه هارون - عليهما السلام - أمرهما الله تبارك وتعالى أن يذهبا إلى فرعون لدعوته إلى الله بالحسنى والقول اللين ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[طه : ٤٣، ٤٤]. واستجابا لأمر الله، واستأذنا على فرعون وبدأه بالدعوة إلي توحيد الربوبية والاعتراف بالخالق حيث كان - لعنه الله - يدعي الربوبية ﴿ **إنا رسول رب العالمين** ﴾[الشعراء : ١٦] . ثم طلبا منه أن يبعث معهم بني إسرائيل ويخلصهم مما هم فيه من العبودية والأذى، ثم ختما ذلك بالقول الحسن ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾[طه : ٤٧] .

ومع هذا الأسلوب الحسن فقد وقع ما توقعه موسى وهارون حين قالا : ﴿ **إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ والله تعالى يعلم ذلك قبلهم، ولكنه أراد أن يقيم الحجة عليه وعلى قومه ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[الإسراء : ١٥] فقد أنكر فرعون دعوتهم وسخر منهم واستهزاء بهم وقال : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ فأجابه موسى - عليه السلام - ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾الشعراء : ٢٤] . ثم استمر موسى في إثبات ربوبية الله منذ القدم وقبل أن يولد فرعون وجنده ﴿ **ربكم ورب آبائكم ا لأولين** ﴾[الشعراء : ٢٦] ثم ذكر شيئاً من صفاته تعالى وقدرته فقال : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى** ﴾ [طه: ٥٣] .

وحين شعر فرعون أن موسى - عليه السلام - قد غلبة بالحجة والبرهان لجأ إلى

القوة وهدد بسجن موسىٰ أن هو عبد الله وحده ورفض ما عليه الناس من العبودية لفرعون ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ الشعراء: ٢٩] .

الحوار بأسلوب آخر :

وهنا التفت موسىٰ في الحوار مع فرعون إلىٰ المعجزات الإلهية التي تؤكد أنه مرسل من عند الله فلعل فرعون أن يستيقظ من غفلته وعساه أن يعود إلىٰ رشده، قال موسىٰ ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾[الشعراء : ٣٠] . قال فرعون : فأت به إن كنت من الصادقين، فألقىٰ موسي ـ عليه السلام ـ عصاه فإذا هي تتحول إلي ثعبان عظيم بينة واضحة، ثم أدخل يديه في جيبه ونزعها فإذا هي بيضاء للناظرين.

ومع هذه الآيات المعجزات هل ترىٰ فرعون آمن بالله وصدق المرسلين ؟ كلا والحق تبارك وتعالىٰ يقول عنه ﴿إن فرعون علا في الأرض . . إلىٰ قوله . . إنه كان من المفسدين﴾[القصص : ٤] فهو يصفه بالتكبر والاستعلاء في البداية ثم يصفه بالإفساد في النهاية .

الاتهام بالسحر وإيمان السحرة :

وبدل أن يؤمن فرعون ويستجيب لأمر الله اتهم موسىٰ بالسحر، وطلب أن يجمع السحرة كلهم لمقابلة موسىٰ، وتواعدوا يوم عيد لهم وحضر موسىٰ وكان في جانب وحضر السحرة وكانوا في جانب آخر، وقد استعدوا وجمعوا كل ما يستطيعون من أدوات السحر التي يخدعون بها الناس، ووعدهم فرعون بالعطايا والهدايا إن هم غلبوا، وذكّرهم موسىٰ وخوفهم بالله إن هم بغوا وكذبوا ، وبدأ الآمتحان العصيب، وقالوا لموسىٰ : إما أن تبدأ أو تكون البداية لنا، فأذن لهم موسىٰ في البداية، فألقوا كل ما معهم من حبال وعصي وخيل للناس أنها حيات وثعابين، وضج المكان بالفرح و السرور، واعتقد فرعون

وجنوده أنهم انتصروا، وكان سحراً عظيماً كما قال الله ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾[الأعراف : ١١٦] .

وخاف موسي عليه السلام على الناس أن يفتنوا ويصدقوا سحرهم قبل أن يلقى ما في يده[١] ، ولكن الله تعالى أوحى إليه على الفور ﴿لاتخف إنك أنت الأعلى، والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتى﴾[طه : ٦٨، ٦٩] .

فألقى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة تسعى ذات قوائم وعنق عظيم وشكل مخيف[٢] ، وأقبلت على حبالهم وعصيهم فابتلعتها ولم تبق منها شيئاً وتعجب الناس كلهم، أما السحرة فقد أدركوا أن ذلك ليس بسحر وإلا لما أبطل سحرهم، وأيقنوا أن ذلك فعل إلهي لاطاقة للسحرة به ولايستطيعون .

وكانت المفاجأة :

أتدري كيف كانت نهاية هذا المشهد المؤثر . . لقد كانت نهايته إيمان السحرة بالله رب العالمين ورفضهم عبودية فرعون اللعين، ومع أن فرعون توعدهم وتهددهم فلم يصدهم ذلك عن دينهم بل اشهروا اسلامهم على الناس وهذا ما أزعج فرعون وأغضبه ولكن دون جدوى، واستمع إلى كلمات الإيمان واليقين من أقوام كانوا قبل لحظات في عداد السحرة المكذبين [٣] ﴿فألقي السحرة سجداً قالوا أمنا برب هارون وموسى، قال أمنتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيدكم وأرجلكم من خلال ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٢٧٧ .

(٢) البداية والنهاية ١/ ٢٧٧ .

(٣) قال سعيد بن جبير : «لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده» (البداية وا لنهاية ١/ ٢٧٨) .
وقال ابن عباس - رضي الله عنهما : «كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخرة شهداء بررة (البداية والنهاية ١/ ٢٨٠)

أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا أمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقي. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولايحي. ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكىٰ﴾[طه : ٧٠-٧٦] .

٧ - عاقبة التكذيب والإستعلاء على الحق :

ومع هذه الآيات البينات التي آمن السحرة بها ، لم يزدد فرعون إلا عتوا وعناداً ، خاصة وقد كان الكبراء المجرمون من جنده يحرضونه ويخوفونه من موسىٰ وقومه ، فيجيبهم فرعون بل سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾[الأعراف : ١٢٧] . وما كان أمام بني إسرائيل إلا الصبر علىٰ الأذىٰ ، وموسىٰ عليه السلام يسليهم ويؤكد لهم أن العاقبة للمتقين الصابرين ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾[الاعراف : ١٢٨] .

آيات أخر :

واستمر موسىٰ - عليه السلام - في دعوة فرعون وتخويفه من عذاب الله وبأسه ، وأمره الله تعالىٰ أن يعلم فرعون وقومه أنه سينزل عليهم ألواناً من العذاب والآيات الدالة علىٰ قدرته لعلهم يرجعون وعساهم يؤمنون ، وفوق معجزة العصا واليد التي سبق لهم رؤيتها فقد أنزل الله عليهم سبع آيات آخر أخبر الله تعالىٰ عنها بقوله : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون .. إلىٰ قوله فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم أيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾[الاعراف : ١٣٠ - ١٣٣] .

والمراد بالسنين أعوام القحط والجدب التي لايستغل فيها زرع ولاينتفع بضرع، ونقص الثمرات قلة الثمار من الأشجار، والطوفان كثرة الأمطار المغرقة والمتلفة للزروع والثمار، أما الجراد وفمعروف، وقد سلطه الله عليهم بشكل كبير حتىٰ أفنىٰ زرعهم وثمارهم ولم يبق لهم شعراً ولا صوفاً[1] .

أما القمل فقيل هو السوس الذي يخرج من الحنطة وكان مؤذياً لهم، وكذلك الضفادع التي قيل أنها لكثرتها كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، أما الدم فهي أية كبرىٰ، حيث استحال الماء لهم دماً فلا يستقون من بئر ولا نهر إلا انقلب إلىٰ دم في الحال، ومن عجب أن بني إسرائيل وهم معهم لم يتغير ماؤهم بسوء ولم يصبهم ما أصابهم . . فهل آمن الكافرون أو تراه استجاب لأمر الله وأيقن بقدرته المجرمون؟ كلا وربك أعلم بمن يستحق الهداية، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون .

نهاية الظلم وهلاك المكذبين :

ولم يكن أمام موسىٰ ومن آمن معه من بني إسرائيل إلا الفرار بدينهم والهروب من بطش فرعون وأذاه وهو الذي لم تنفعه الآيات البينات ولم تؤثر فيه النذر والمعجزات وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر وموطن فرعون إلىٰ فلسطين ليلاً حتىٰ لايراهم فرعون وجنده، وسكلوا طريق البحر، وحين استيقظ فرعون وجنده ورأوا أرض مصر قد خلت من موسىٰ وبني إسرائيل جهزوا جيشاً كبيراً ولحقوا بهم في صباح اليوم الثاني، وكان يوماً مشهوداً وملحمة كبرىٰ بين المؤمنين والكافرين، أما المؤمنون فقد أصابهم الخوف في البداية وقالوا لموسىٰ لقد أدركنا القوم وهاهو البحر أمامنا والعدو خلفنا فماذا ترىٰ ؟ فطمأنهم موسىٰ ـ عليه السلام ـ قائلاً : ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ ولما هدأ روعهم أمر الله موسىٰ أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق وصار بقدرة الله

(١) ذكره بن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٨٧ .

أرضاً يابسة مشوا عليها، فلما اكتملوا داخلين، إذا بفرعون وجنده يصلون ورغب موسىٰ ـ عليه السلام ـ أن يضرب البحر مرة أخرىٰ ليعود كما كان حتىٰ لايتمكن فرعون وجنده من اللحاق بهم فأوحىٰ الله إليه أن يترك البحر كما كان حتىٰ يدخلوا فيغرقوا، وهذا ما حصل، فقد اقتحم فرعون وجنوده وهم يظنون أن هذا الطريق المفتوح في البحر سيظل أبداً، وما علموا أن الله أراد أن يكتملوا داخلين فيغرقهم أجمعين، وتلك أية عظيمة ومعجزة كبرىٰ، إذ عاد البحر بأمر الله ماء عظيماً كما كان وأمواجاً تتلاطم كالجبال وحينئذ أدرك فرعون وجنده ضعفهم أمام قدرة الله، وصاحوا يلتمسون النجاة، وظنوا أن الإيمان ينفعهم في هذه اللحظات ولكن هيهات . . وتجرد فرعون من ملكه وسلطانه ، وأعلن عجزه واستسلامه إذ يقول: ﴿ **أمنت أنه لاإله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ فرد الله تعالىٰ ﴿ **ءآلن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾[يونس: ٩٠-٩٢] .

أجل لقد غرق فرعون وأزهقت روحه، ولكن أمواج البحر بأمر الله قذفت به إلي الشاطئ جسداً هامداً ليرىٰ من بقي من أنصاره وأعوانه مصيره الأليم، وهو الطاغية الذي كان يقول لهم ﴿ **ماعلمت لكم من إله غيري** ﴾ ويعرف الناس جميعاً أن الباطل ليس له قرار، وأن الملك دائماً لله الواحد القهار وإن في ذلك لعبرة[١] .

٨ ـ قوم موسى ونفسيتهم وعوامل بنائها :

ماذا يتوقع أن تكون عليه نفسية بني إسرائيل ، وهم الذين انجاهم الله من بطش فرعون وأذاه علىٰ يد نبيهم موسىٰ عليه السلام، ثم أنقذهم الله في لج البحر وأهلك فرعون وجنده وهم ينظرون ؟ لاشك أن المتوقع أن نفوسهم

---

(١) تاريخ الأنبياء . . . النجار ص ٢٢٠ .

ستمتلئ إيماناً، وتصديقاً بوعد الله، وطاعتهم لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ وتقديره ستزداد رسوخاً وثباتاً، ولكن الذي وقع خلاف ذلك .

فلم تكن نفسيتهم مستقرة مطمئنة وهادئة طيبة، ولم يستفيدوا كثيراً من المعجزات الباهرة ، فمنهم من أعجبه ماله وغرته دنياه فاستعلى على الناس وتكبر ورفض أن يعطي الفقراء مما أعطاه الله وأنكر الزكاة الواجبة وقال: ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي** ﴾ ونسى أن الله هو الذي أعطاه وحباه وهو قادر على سلبه منه بل إهلاكه وفضحه على رؤوس خلقه، ذلكم هو «قارون» مثال الكبرياء والبخل وعنوان الجهل والغرور، والذي حكى الله قصته في القرآن فقال في بدايتها ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لايحب الفرحين** ﴾[القصص : ٧٦].

ثم قال في نهايتها ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾[القصص : ٨١] .

ولم يكن قارون هو النموذج الوحيد في السوء فقد أذى أخرون من قوم موسى نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ واتهموه في خلقته ووصفوه كذبا وبهتانا بما ليس فيه وتولى الله الدفاع عنه وتبرئته ما أتهم به وشهد له بالوجاهة فقال: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾الأحزاب: ٦٩].

ولا غرابة أن يعتب موسى ـ عليه السلام ـ على قومه ويستنكر أذيتهم له فيقول ﴿ **ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدي القوم الفاسقين** ﴾[الصف : ٥] .

ومع هذا الأذى فقد كانوا كثيري التعنت والمجادلة بغير حق فقد قالوا لموسى أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

وحين أمرهم الله بذبح بقرة قالوا لموسىٰ أتهزأ بنا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، ثم جعلوا يسألون عن سنها ولونها وسائر أوصافها وهكذا شددوا علىٰ أنفسهم فشدد الله عليهم وكان يكفيهم أن يذبحوا أي بقرة .

وفوق ذلك كله فقد قالوا لموسىٰ صراحة ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾. وكأنهم بذلك لايرون له فضلاً عليهم ، ولا غرابة في ذلك فاليهود قوم بهت!

وحين ـ نعلم ذلك كله من قوم موسىٰ ـ عليه السلام ـ فلابد من ملاحظة أن هناك فئة أخرىٰ قد آمنت وصدقت وكانت لموسىٰ من الناصحين، ويكفي أن نشير إلىٰ الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه والذي قال كلمة الحق في وجه المجرمين﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾[غافر: ٢٨] والرجل الناصح الذي جاء إلىٰ موسىٰ يخبره بما عزم عليه القوم من قتله. ويقول: ﴿ **يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين** ﴾ [القصص : ٢٠].

وهكذا يوجد في كل زمان ومكان فريقان فريق من المؤمنين الناصحين، وفريق من المجرمين المفسدين، ولكن العاقبة للتقوىٰ والنصر للمؤمنين ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ .

٩ ـ انحراف بني إسرائيل وتتابع الرسل إليهم :

ماكان لهذه النفسية القلقة أن تثبت علىٰ الحق أو تستمر علىٰ الهدىٰ، وسرعان ما بدأ انحرافهم، وهل أشد من الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان، نعم لقد وقع هذا من بني إسرائيل حينما مروا بقوم يعبدون أصناماً لهم، فقالوا لموسىٰ اجعل لنا إلهاً كما لهؤلاء إله ! ونسوا الههم الحق الذي يستحق العبادة وكأنهم لم يشاهدوا شيئاً من آياته ومعجزاته، ولهذا أنكر عليهم موسىٰ عليه

السلام ووصفهم بالجهل فقال: ﴿إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾[الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

ثم وقع الشك في إيمانهم وقالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾[البقرة: ٥٥].

وحين ذهب موسى - عليه السلام - لميقات ربه لتلقى الألواح استطاع السامري الضال أن يضلهم بعبادة العجل من دون الله، وهذه توضح لك تفاهة عقولهم وهل يعبد البهائم إلا من هم كذلك ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[الفرقان: ٤٤].

وزادوا في انحرافهم فوصفوا الله بما لايليق به، ومما قالوا: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[آل عمران: ١٨١] تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقالوا: ﴿يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[المائدة: ٦٤].

وقالوا: ﴿نحن أبنا ءالله وأحباؤه﴾[المائدة: ١٨] وتأمل هذا التناقض العجيب في أقوالهم فهم حينا يقولون ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ و﴿يد الله مغلولة﴾ وحيناً آخر يقولون أنهم أبناء الله وأحباؤه.

وكما وقع الانحراف في عقائدهم وتصوراتهم فقد وقع الانحراف في سلوكياتهم وأفعالهم، وهل أسوأ وأبشع من قتل الأنبياء - عليهم السلام - وهم الهداة المصلحون، قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾[آل عمران: ٢١].

وحين أمرهم موسى - عليه السلام - بالجهاد وتحرير بيت المقدس من القوم الظالمين آثروا الراحة والكسل وقالوا لموسى ساخرين ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾[المائدة: ٢٤].

وحين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، بدأت الأسماك تكثر في هذا اليوم فتحيلوا على صيدها وبدؤا يجمعونها في شباكهم في هذا اليوم فإذا كان اليوم الذي يليه أخذوها ، خابوا وخسروا والله شهيد على ما يعملون، إلي غير ذلك من أنواع الانحرافات التي وقعوا فيها .

وتتابع الرسل عليهم السلام بعد موسى عليه السلام يخوفونهم بالله ويذكرونهم اليوم الآخر، فلم تصلح أحوالهم بل ساءت إلى درجة تطاولوا فيها على الأنبياء والمرسلين ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

تلك بعض صفات بني إسرائيل، وهذه نماذج لإنحرافات المغضوب عليهم، ومن يضلل الله فما له من هاد .

١٠ ـ عيسى عليه السلام

١ ـ قصة مريم وولادة عيسى عليه السلام :

الحديث عن عيسى ـ عليه السلام ـ يستدعي الحديث عن أمه «مريم» بل وعن ذرية «آل عمران» هذه الذرية التي اصطفاها الله واختارها، كما اختار آدم ونوحاً وآل إبراهيم على العالمين ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[آل عمران : ٣٣] .

فمن هم آل عمران ؟ وما علاقة عيسى عليه السلام بهم ؟

هي أسرة كريمة مكونة من عمران والد مريم، وامرأة عمران أم مريم، ومريم، وعيسى عليه السلام، فعمران جد عيسى لأمه، وامرأة عمران جدته لأمه وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت زوجته «امرأة عمران» امرأة صالحة كذلك، وكانت لاتلد فدعت الله ذات يوم أن يرزقها ولداً ونذرت لله لئن حملت لتجعلن ولدها مُحَرَّراً أي مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس فاستجاب الله دعاءها وحملت ولكنها كانت لاتعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى، وشاء الله أن تلد مريم، وأن يتقبلها ربها نذيرة[1] (أي خادمة لمكان العبادة) وأن ينبتها نباتاً حسناً حيث جعل شكلها حسناً ومنظرها بهيجاً، وجعل كفالتها ورعايتها إلى «زكريا» عليه السلام (وهو زوج أختها أو خالتها)[2] وإنما قدر الله ذلك لتقتبس من زكريا علماً نافعاً وعملاً صالحاً.

وكما تقبل الله دعاء «امرأة عمران» في أن يرزقها ولداً، فقد دعت وقبل الله

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢/ ٢٨ .

دعاءها في ألا يمس الشيطان مريم وذريتها ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾[آل عمران : ٣٦] .

قال ﷺ في الحديث الصحيح : «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه، إلا مريم وابنها»(١) .

وبالفعل كانت مريم مثالاً للعبادة والتقوىٰ، وأسبغ عليها ربها من فضله ونعمه ما لفت أنظار الآخرين، فكان زكريا ـ عليه السلام ـ كلما جاء إليها وجد عندها رزقاً فيسألها من أين لك هذا ؟ فتجيب ﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[آل عمران : ٣٧] .

ولادة عيسى عليه السلام معجزة كبرى :

كل ما وقع لمريم كان تهيئة وتمهيداً للمعجزة الكبري والقدرة الإلهية العظمىٰ، حيث ولد عيسىٰ عليه السلام من هذه المرأة النقية الطاهرة، دون أن يكون له أب كسائر الخلق، وكما بشرتها الملائكة باصطفائها وطهارتها علىٰ نساء العالمين، كما في قوله تعالي : ﴿وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾[آل عمران : ٤٢]. فقد بشرتها الملائكة كذلك بمولود يولد لها، وله شأن عظيم، فهو يولد من غير أب، وسيكلم الناس وهو بعد في المهد معجزة وآية، ثم يكلمهم وهو كبير كهل بوحي الله المنزل عليه، ومن هنا يعلم الناس قدرة الله ويؤمنوا بمعجزاته ليس فقط في ولادة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ دون أب، وإنما كذلك في تكليمه الناس وهو في المهد صغير، وتنزيل الوحي عليه من السماء حينما يكبر ويكون كهلاً، قال الله تعالىٰ جل شأنه في ذلك كله ﴿إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾[آل عمران ٤٥، ٤٦].

---

(١) الحديث متفق عليه انظر : صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٤٦٩ ح٣٤٣١، صحيح مسلم ٤/ ١٨٣٨ ح٢٣٦٦ .

ومع أن الملائكة بشرت «مريم» بذلك فقد استغربت وقوعه، ثم أرسل الله إليها «جبريل» عليه السلام على هيئة إنسان ومع ذلك خافته على نفسها لانها كانت في مكان منفرد وبينها وبين أهلها «حجاب» وظنته يريدها على نفسها وقالت ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾[مريم : ١٨] فأخبرها أنه رسول من عند الله جاء ليهبها غلاماً زكياً، فاشتد عجبها ، وقالت : ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾[مريم : ٢٠] فأجابها الملك أن ذلك لأمر يريده الله وهو عليه هين .

واستسلمت «مريم» لقضاء الله وإرادته ، وحملت «بعيسى» عليه السلام، ولكن لم يفارقها الهم منذ حملت، واشتد همها وحزنها حين اقتربت ولادتها والسبب في ذلك أنها لاتدري ماذا ستقول للناس حين يسألون عن أبيه، وإن هي أجابتهم بما حصل فهل سيصدقون ؟ وكيف لها أن تقنعهم بما أراد الله ؟

وحين اشتد كربها وهمها عند الولادة حتى تمنت أنها ماتت قبل هذا وكانت نسياً منسياً بعث لها ملكاً كريماً يقول لها ﴿لاتحزني قد جعل ربك تحت سرياً﴾ [مريم : ٢٤] وفوق ذلك أُمرت أن لاتجيب من سألها عن المولود فسيكون هناك من يتولى الإجابة عنها، وعليها أن تقول لمن سألها إني نذرت ألا أتحدث ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم أنسياً﴾[مريم : ٢٦] .

عيسى عليه السلام يتكلم في المهد :

وولد عيسى عليه السلام، وجاءت به مريم تحمله، وحصل ما كانت تتوقعه، فقد سُئلت عن المولود، وقيل لها ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي عظيماً ﴿ياأخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغياً﴾[مريم : ٢٧، ٢٨]. والتزمت «مريم» بالوصية فلم تجبهم ولم تتحدث معهم واكتفت بالإشارة إلى الغلام وهي لاتدري كذلك ماذا سيقول الغلام، واستغرب القوم أن تحيلهم إل طفل في المهد

ليجيبهم، ولكنهم فوجئوا أن الغلام يترك ثديه ويكلمهم بأمر الله وقدرته قائلاً: ﴿ **إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً** ﴾[مريم: ٣٠-٣٢] .

وهنا انكشف للقوم قدرة الله، وأبصروا المعجزة الربانية، وخف مصاب المرأة المسكينة وانتهى حزنها .

٢ - رسالته إلى بني إسرائيل ، وكيدهم به، ونجاته بفضل الله منهم :

بعث الله «عيسى» عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل مصدقاً لرسالة موسى عليه السلام ، ومبشراً برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ..** ﴾[الصف : ٦] .

وكان المجتمع الذي بعث فيه مجتمعاً يهودياً دخلته الانحرافات والضلالات، فقد طال الأمر على بني إسرائيل، وتضايقوا من الرسل والرسالات فقست قلوبهم، وحرفوا وبدلوا في دين الله، وتلاعبوا بكتابهم المقدس التوراة، وإذ كانت نفسية بني إسرائيل سيئة وموسى عليه الصلاة والسلام حي معهم يدعوهم ويوجههم، فلا شك أن حالهم أسوأ بعد وفاة موسى، وكلما تطاول العهد بهم زاد انحرافهم وفسدت أخلاقهم، ولهذا كان على عيسى أن يبذل جهداً كبيراً لإصلاحهم وإقناعهم بسلوك طريق الله .

المعجزات الباهرات :

وأول ما ابتدأ عيسى يدعوهم إلى الله أخبرهم بما معه من آيات ومعجزات تؤكد نبوته وتدعوا إلى التصديق به، وتجدد الإيمان بخالقهم وتقويه .

لقد أعطاه الله - فيما أعطاه - القدرة على الخلق بإذنه ﴿ **أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله** ﴾ [آل عمران: جزء من آية ٤٩] . فكان يصور

من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذنا الله عز وجل[١] .

وأعطاه إبراء الأكمة والأبرص وشفاءهما بإذن الله ، والأكمه هو الذي يولد أعمى[٢] . أما الأبرص فهو معروف، وكل هؤلاء يعيدهم إلى حالتهم الطبيعية بإذن الله إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لعيسى عليه الصلاة والسلام[٣] .

وفوق هذه الآيات البينات فقد كانت رسالة عيسى عليه السلام تخفيفاً لبني إسرائيل، وليحل لهم بعض ما حرم الله عليهم حين ظلموا وعصوه وخالفوا أمره كما قال تعالى : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم..** ﴾ [النساء : ١٦٠، ١٦١]، فجاء عيسى عليه السلام ليقول لهم ﴿ **ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم** ﴾[آل عمران : ٥٠] .

ومع ذلك كله فقد كذب برسالة عيسى عليه السلام المجرمون، وآذى بنو إسرائيل عيسى عليه السلام وأحس منهم الكفر، وما زال يناظرهم ويجادلهم حتى ألزمهم الحجة، فضاقوا به وبدعوته ذرعاً، وفكروا في الخلاص منه وإنهاء دعوته، فماذا كان من كيدهم، وكيف كانت نهايته معهم؟

المكر السيء والجريمة النكراء :

وأخيراً انتهى تفكير بني إسرائيل وخاصة اليهود إلى قتل عيسى عليه السلام، وصلبه أمام الناس وفكروا في أنسب الوسائل لتنفيذ هذا المخطط الآثم، وهم أهل المكر والكذب والخداع ورأوا أن يعرضوا أمره على حاكم بلدتهم «بيت المقدس» فجاءوا إليه وقالوا أن عيسى رجل سوء فرَّق بيننا، وأضل الناس من حولنا، وصدهم عن طاعة الملك وما زالوا يتحدثون بالباطل حتى استشاط هذا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦ .

(٣) تراجع الآيتان ٤٩ من سورة آل عمران ، ١١٠ من سورة المائدة لمن أراد التفصيل .

الملك غضباً ـ وكان كافراً ـ فطلب أن يقبض على عيسى عليه السلام حيث كان، وأن يقتل ويمثل به أمام الناس، وذهب المجرمون، والتقى كيد الكافرين، وأحيط بمنزل عيسى عليه السلام، وما كان يمتلك جنداً لمقاومتهم، فأسلم أمره لله وهو واثق بنصره له ومدافعته عنه، ومن يغيث الملهوفين أو ينصر المظلومين سواه، وما زال عيسى يدعو ربه ويستنصره حتى فتح له باباً من السماء، وانفتحت له فرجة في سقف البيت فخرج منها ورفعه الله إلى السماء وأهل البيت ينظرون[1] .

أما هؤلاء اليهود فقد اقتحموا المنزل بعد رفعه عليه السلام، وألقى الله شبه عيسى على رجل آخر كان داخل البيت[1] ، فظنوه عيسى فأخذوه وقتلوه ثم صلبوه وهم لايشكون أنه عيسى عليه السلام، وما علموا أن الله حفظ نبيه من أن تمسه أيدى الكافرين، وأبطل كيد الكائدين، ولايحيق المكر السيء إلا بأهله وكذلك ينجى الله المؤمنين .

وعد ـ أيها النشء ـ إلى كتاب الله المنزل من السماء ، وستجد فيه عرضاً لهذه الحقائق بجلاء، يقول تعالى : ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ..** ﴾[آل عمران : ٥٤, ٥٥] ويقول تعالى في موضع آخر مشيراً إلى بعض جرائم اليهود ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾. إلى قوله تعالى : ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[النساء : ١٥٥ـ١٥٨] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتب التفسير والتاريخ ومنها (تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧، ٤٠٠، البداية والنهاية ٢/ ١٠١) .

(٢) يقال إن هذا الرجل المقتول هو الذي دل اليهود على مكان عيسى عليه السلام والله أعلم (انظر النبوة والأنبياء، للصابوني) ص ٢١١

٣ - القول الحق في عيسى عليه السلام وموقف الإسلام من دعاوي اليهودية والنصرانية :

علىٰ الرغم من بشاعة جرم اليهود في محاولتهم قتل عيسىٰ - عليه السلام - وصلبه - وهو أمر لا يستغرب منهم وهم قتلة ا لأنبياء كما مر معك آنفاً - فلهم مع عيسىٰ - عليه السلام - موقف عدائي آخر لا يقل سوءً عن سابقه ، فقد اتهموا أمه «مريم» الطاهرة البتول (بالزنا) واعتبروا عيسىٰ عليه السلام (ابن زنا)[1] - عليهم من الله ما يستحقون - وهي مواقف تكشف لك عن خبث اليهود وانحطاط أخلاقهم وتدني مستوىٰ تفكيرهم ، وقد وصفهم الله بالكفر لهذه التهمة البشعة ، كما وصف تهمتهم تلك (بالبهتان العظيم) فقال تعالىٰ : ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً** ﴾[النساء : ١٥٦] .

كفر النصاري وغلوهم :

وكما تطرف اليهود في مواقفهم من عيسىٰ عليه السلام ، فقد تطرف النصارىٰ في موقفهم من عسيىٰ عليه السلام ، فهم يشتركون مع اليهود في القول بقتل المسيح عيسىٰ عليه السلام وصلبه ، ويزيدون علىٰ اليهود بالغلو في عيسىٰ - عليه السلام - وأمه حيث زعموا - كذباً وبهتاناً - أن عيسىٰ - عليه السلام - هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ﴿ **تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً** ﴾ .

وكما حكم الله بكفر اليهود فقد حكم بكفر النصاري ، فقال تعالىٰ : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . .** ﴾[المائدة : ١٧ ، ٧٢] .

وقال : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثه وما من إله إلا إله واحد** ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وقالت اليهود عُزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ [التوبة : ٣٠] .

---

(١) يوجد هذا القول في توراة اليهود المحرفة (انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية د. مهدي رزق الله أحمد ص ٨٧)

القول الحق وموقف المسلمين :

وبين هذين الموقفين المتناقضين، والتصورين الخاطئين (لليهود والنصارىٰ) يقف الإسلام موقفاً وسطاً عدلاً في عيسىٰ عليه السلام، فيترفع عن اتهام (مريم) بالزنا، وهي التي حفظها الله وأنبتها نباتاً حسناً وأثنىٰ عليها بقوله : ﴿ **ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** ﴾[التحريم : ١٢] ويستغرب المسلمون المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله أن يوصف نبي من أنبياء الله بأنه (ولد زنا) كما زعمت اليهود .

ويرفض الإسلام والمسلمون أن يوصف عيسىٰ عليه السلام بالألوهية كما زعمت النصارىٰ، ويعتقد المسلمون أن عيسىٰ« عليه السلام عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، خلقه الله من أم دون أب، كما خلق آدم من تراب بلا أم ولا أب وهو علىٰ كل شيء قدير ، وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ومن يقرأ كتاب الله [1] يجد الموقف الحق للمسلمين، ويكتشف الدعاوىٰ الباطلة لليهود والنصاري في حق عيسىٰ عليه السلام .

الدروس المستفادة من قصتي موسى وعيسى عليهما السلام :

١ ـ عظمة قدرة الله حيث أنجىٰ موسىٰ عليه السلام من بطش الظالمين، وعاش معززاً مكرماً في بيت الطاغية فرعون رغم أنفه ليبين الله ذلته وضعفه أمام الخلق أجمعين .

٢ ـ أن عاقبة الظلم وخيمة، ومهما تجبر الإنسان وتكبر فربك للظالمين بالمرصاد وهو الذي أهلك فرعون في لج البحر، وخسف بقارون الأرض .

٣ ـ خسة ولؤم ودناءة طبع بني إسرائيل (اليهود) فقد أنقذهم الله بموسىٰ من

---

(١) انظر مثلاً : الآية ٥٩، ٦٠ من سورة آل عمران، والآية ١٧١ من سورة النساء، والآية ٣٠ من سورة مريم .

جحيم فرعون، ومع ذلك عبدوا العجل من دون الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وآذوا موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام .

٤ ـ تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات دليل علىٰ صدق نبوتهم، ولا يستفيد من معجزات الأنبياء والرسل إلا المؤمنون الصادقون، وما تغنىٰ الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون .

٥ ـ شجاعة المؤمن في قول كلمة الحق وموسىٰ عليه السلام يقول لفرعون ﴿ **وإني لأظنك يافرعون مثبوراً** ﴾ والرجل المؤمن من آل فرعون يقول : ﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله** ﴾ .

٦ ـ عظيم صبر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ علىٰ أقوامهم وشدة تحملهم في سبيل نشر دين الله، وحاجة أتباعهم إلىٰ أن يقتدوا بهم ويستفيدوا من سيرهم .

٧ ـ قدرة الله لاحدود لها، والذي خلق هذا الكون وأبدعه قادر علىٰ أن يوجد بشراً بلا أم ولا أب، أو بأم دون أب، وهو علىٰ كل شيء .

٨ ـ ضلال اليهود والنصاري عن الحق ، وتوفيق الله للمسلمين لسلوك الطريق الحق ومحبتهم للأنبياء جميعاً وعدم الغلو في أحد منهم .

٩ ـ أثر الإيمان كبير علىٰ القلوب، وهو الذي جعل السحرة يؤمنون بالله فجأة ويتحدون فرعون صراحة، ويصبرون علىٰ الأذىٰ ويقولون لفرعون ﴿ **أقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾ ويقولون ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ .

١٠ ـ لابد من معرفة أخلاق اليهود وعدم الانخداع بهم، فهم أهل كذب ومكر وخداع، وقد يُظن أنهم متفقون جميعاً، والحقيقة أن قلوبهم شتىٰ كما أخبر الله عنهم في كتابه الكريم ﴿ **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** ﴾ .

١١ ـ نبوة محمد ﷺ متقدمة فقد بشر بها عيسىٰ عليه السلام حين قال : ﴿ **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ وقبل عيسىٰ دعا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ كما سبق ـ أن يبعث الله في العرب رجلاً منهم فاستجاب الله الدعاء .

قائمة المصادر والمراجع

* **ابن حجر / أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)**

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، نشر رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد / الرياض .

* **الألباني**

- صحيح سنن الترمذي ، ط الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج / الرياض.

- صحيح سنن أبي داود ، ط الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، نشر مكتب التربية العربى لدول الخليج / الرياض .

- صحيح سنن ابن ماجه، ط : الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، نشر مكتب التربية العربى لدول الخليج / الرياض .

- صحيح الجامع الصغير للسيوطي ، نشر المكتب الإسلامي / بيروت ، ط الثانية ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م .

* **الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ)**

- المستدرك على الصحيحين في الحديث، وبذيله تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي، دار الكتب العلمية .

* **ابن القيم : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)**

ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق وتعليق شعيب، وعبد القادر الأرناؤوط، ط الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

* **ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)**

ـ تفسير القرآن العظيم، ط : دار الشعب، تحقيق محمد البنا، محمد عاشور، عبد العزيز غنيم .

ـ البداية والنهاية : تحقيق ومراجعة محمد النجار، نشر : مكتبة الفلاح / الرياض .

ـ قصص الأنبياء (تحقيق مصطفى عبد الواحد) .

* **البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)**

ـ صحيح البخاري (مع الفتح) نشر وتوزيع إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض .

* **مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)**

ـ صحيح مسلم : تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي، نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض .

* **ابن جرير الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)**

ـ تاريخ الأمم والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف بمصر .

ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تحقيق محمود شاكر) تخريج أحمد شاكر، نشر دار المعارف بمصر .

* **الحكمي : حافظ بن أحمد**

- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، من مطبوعات الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد / الرياض .

* **ابن الأثير : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ)**

- جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (تحقيق عبد القادر الأرناؤوط) نشر مكتبة الحلواني ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

- النهاية في غريب الحديث والأثر، ط : الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م دار الفكر .

* **الألوسي**

- روح المعاني ، الطبعة المنيرية

* **الشنقيطي : محمد الأمين بن محمد المختار**

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مطبعة المدني، القاهرة .

* **الطحاوي : أبو جعفر أحمد بن محمد (ت ٣٢١هـ)**

- شرح العقيدة الطحاوية، نشر المكتب الإسلامي / بيروت، ط الأولى ١٣٩٢هـ .

* **الصابوني : محمد بن على**

- النبوة والأنبياء، نشر : دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت .

* **الفوزان : صالح بن فوزان**

- شرح العقيدة الواسطية

* **الأشقر : عمر بن سليمان**

- الرسل والرسالات ، مكتبة الفلاح الكويت ، ط : الثالثة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

* **الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ)**

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / من منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثالثة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

* **البار : محمد على**

- الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، ط الأولىٰ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ ، نشر دار القلم/ دمشق، الدار الشامية / بيروت .

* **زين العابدين : محمد سرور**

- منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله (الجزء الأول) ط الثالثة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، دار الأرقم / الكويت .

- منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله (شعيب) (الجزء الثاني) ط : الأولىٰ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ ، دار الأرقم/ بريطانيا .

* **الرازي**

- عصمة الأنبياء

* **الندوي : أبو الحسن علي الحسني**

- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، نشر : دار القلم/ دمشق، ط السادسة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

* **النجار : محمد الطيب**

- تأريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ط الثالثة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الاعتصام / القاهرة .

* **الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله**

- معجم البلدان ، دار الكتاب العربي / بيروت .

* **الفقي : محمد حامد**

- قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، نشر مكتبة وهبة / مصر، ط الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

* **ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)**

- زاد المسير في علم التفسير

* **طبارة : عفيف**

- مع الأنبياء في القرآن الكريم .

* **أحمد رضا**

- معجم متن اللغة ، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م

* **القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)**

- الجامع لأحكام القرآن ، ط : دار الفكر .

* **المنذري : زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ)**

- مختصر صحيح مسلم، ط الثالثة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، المكتب الإسلامي .

* **قطب : سيد**

ـ في ظلال القرآن، ط دار الشروق

* **ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد الظاهري (ت ٤٥٦هـ)**

ـ جوامع السيرة، تحقيق د. احسان عباس، ناصر الدين الأسد، طبعة باكستان ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

* **ابن سعد : أبو عبد الله**

ـ الطبقات الكبرىٰ، طبعة دار صادر، بيروت

* **الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)**

ـ السيرة النبوية، تحقيق حسام الدين القدسي، دار مكتبة الهلال، بيروت

* **ابن طرهوني : محمد بن رزق**

ـ صحيح السيرة النبوية، نشر دار ابن تيمية للطباعة والنشر، ط: الأولىٰ ١٤١٠هـ.

* **ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ)**

ـ الكامل في التاريخ ، ط : دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٣٦٥م

* **رزق الله : مهدي رزق الله أحمد**

ـ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط الأولىٰ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، نشر مركز الملك فيصل للبحوث / الرياض .

* التبريزي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب (ت بعد سنة ٧٣٧هـ)

- مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، نشر : المكتب الإسلامي .

محتويات الكتاب

أولاً : نشأة البشرية وحاجتها إلى الرسل	٣
١ـ التعريف بنشأة البشرية وأصل التوحيد	٣
٢ ـ بيان حاجة البشرية للرسل	٧
٣ ـ تعريف النبوة والرسالة والفرق بينهما	١٠
التعريف والفرق الدقيق	١١
أول الأنبياء والرسل	١٢
الأنبياء والرسل جم غفير	١٣
أسباب تعددهم	١٣
التوحيد أصل دعوتهم	١٤
٤ ـ خصائص الأنبياء ودعوتهم	١٥
دعوة الأنبياء	١٨
٥ ـ العبر المستفادة من قصص الأنبياء	١٩
٦ ـ مصادر تاريخ الأنبياء	٢١
ثانياً : نماذج من الأنبياء والرسل ـ بعد آدم عليهم السلام	٢٥
(١) نوح عليه السلام	٢٥
١ ـ نسبة وموطنه وقومه	٢٥
٢ ـ دعوة نوح عليه السلام وأسلوبه في دعوته	٢٧
أسلوب نوح في الدعوة	٢٨
٣ ـ موقف قومه واصرارهم على الكفر	٣٠
الفئة المؤمنة	٣١
سوء التربية	٣٠

النبوة أو الملك	٣١
بين الأغنياء والضعفاء	٣١
من أحق بالجنون والرجم ؟	٣١
فضيحة الكذب يوم الدين	٣٢
٤ ـ نتيجة الكفر والتكذيب (الطوفان)	٣٢
الدعاء بعد اليأس	٣٢
السفينة والإستهزاء	٣٣
كيف وقعت المعجزة	٣٤
المشهد الأخير	٣٤
٥ ـ الدروس المستفادة من قصة نوح عليه السلام	٣٥
(٢) هود عليه السلام	٣٧
١ ـ قوم هود قبل البعثة	٣٧
٢ ـ دعوة هود عليه السلام	٣٩
٣ ـ موقف قومه ونتيجة ذلك	٤٠
٤ ـ الدروس المستفادة من قصة هود مع قومه	٤٤
(٣) صالح عليه السلام	٤٧
١ ـ نسبه	٤٧
قوم صالح قبل بعثته	٤٧
دينهم وعبادتهم	٤٨
٢ ـ دعوة صالح عليه السلام	٤٩
الدعوة إلى التوحيد	٤٩
تذكيرهم بعاقبة المجرمين	٤٩
وعظهم وتخويفهم	٤٩
طلب التوبة والاستغفار	٥٠

الدعاء وخروج الآية	٥١
صبره عليهم وتلطفه معهم	٥١
٣ ـ موقف قومه ونتيجة ذلك :	٥٢
بين العقول السليمة والسقيمة	٥٢
الاتهام بالسحر، ورغبة التحدي	٥٢
فريقان يختصمون	٥٣
عقر الناقة ؟	٥٣
الرهط المفسدون	٥٥
الصيحة الطاغية	٥٦
٤ ـ الدروس المستفادة	٥٧
(٤) إبراهيم عليه السلام	٥٩
١ ـ نسبة	٥٩
٢ ـ نشأته	٦٠
٣ ـ دعوته وأسلوبه مع	٦١
أ ـ أبيه آزر	٦٢
الأب يرفض ويهدد	٦٢
ب ـ مع قومه	٦٣
ب/ ١ الإله الحق لايأفل ولايزول	٦٣
ب/ ٢ أهل بابل والأصنام	٦٥
نقاش هادئ وتقليد جامد	٦٥
التظاهر بالسقم	٦٦
إبراهيم يحطم الأصنام	٦٦
المحاكمة الخاسرة	٦٧
التهديد بالقوة	٦٨

الله يحفظ أولياءه	٦٩
ج ـ مع الملك النمرود	٧٠
٤ ـ هجرة إبراهيم وبناء البيت	٧٢
إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أرض الشام	٧٣
بين مصر وأرض التيمن	٧٣
عبرة في قصة سارة	٧٣
إبراهيم يعود إلي أرض التيمين ومنها إلى مكة المكرمة	٧٤
بناء البيت العتيق	٧٤
٥ ـ ذرية إبراهيم (إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام) (بين نوح وإبراهيم ـ عليهم السلام) .	٧٧
النبوة تنتهى إلى إبراهيم وذريته ـ عليهم السلام ـ	٧٧
٦ ـ الدروس المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام	٧٨
(٥) إسماعيل عليه السلام	٨١
١ ـ مولد إسماعيل ونشأته	٨١
قبيلة جرهم في الحرم ونشأة إسماعيل بينهم	٨١
٢ ـ قصة الذبيح الفداء	٨٢
٣ ـ ذرية إسماعيل ـ عليه السلام	٨٤
٤ ـ الدروس المستفادة	٨٥
(٦) لوط عليه السلام	٨٧
١ ـ كفر قوم لوط وانحطاط أخلاقهم	٨٧
٢ ـ دعوة لوط وموقف قومه	٨٩
موقف الجحود والعصيان والتطاول والاتهام	٨٩
٣ ـ عاقبة الكفر والأمراض وانحطاط الأخلاق	٩٠
٤ ـ الدروس المستفادة	٩١

(٧) يوسف عليه السلام ٩٣
١ ـ نشأة يوسف وموقف إخوته منه ٩٣
ـ الحسد وموقف إخوته منه ٩٣
٢ ـ الابتلاء والإمتحان في حياة يوسف عليه السلام ٩٤
من قاع البئر إلى بيت عزيز مصر ٩٤
مثالية الطهر والعفة في شخصية يوسف عليه السلام ٩٥
يوسف عليه السلام في السجن ٩٥
٣ ـ عاقبة الصبر ٩٦
الخروج من السجن بريئاً ٩٧
على خزائن الأرض ٩٨
صبران جميلان يلتقيان ٩٨
٤ ـ الدروس المستفادة ٩٨
(٨) شعيب عليه السلام ١٠١
١ ـ كفر قومه وتطفيفهم المكيال والميزان ١٠١
٢ ـ دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ وأسلوبه في الدعوة ١٠٢
٣ ـ موقف قومه واستهزائهم به ١٠٣
سخرية وسفاهة ١٠٤
هل يليق هذا المنطق؟ ١٠٤
التهديد بالنفي ١٠٤
السحر تهمة قديمة ١٠٥
عقبى الجحود والإعراض ١٠٥
بين إصرارين ١٠٥
وماذا بعد الحوار والنصح والإرشاد ؟ ١٠٦
عذاب الرجفة أو الصيحة، أو الظلة لماذا ؟ ١٠٦

الدروس المستفادة	١٠٧
(٩) موسى عليه السلام	١٠٩
١ ـ إن فرعون علا في الأرض	١٠٩
٢ ـ نشأة موسى في بيت فرعون ورعاية الله له	١١٠
٣ ـ شعور موسى عليه السلام بآلام الناس ومعاناتهم في ظل حكم فرعون وعمله في نصرة المظلوم :	١١٢
٤ ـ موسى في أرض مدين ﴿إن خير من استأجت القوي الأمين﴾	١١٣
القوة والأمانة	١١٤
٥ ـ رسالة موسى وهارون	١١٥
الآيات والرسالة	١١٥
دعوة موسي ونبوة هارون	١١٦
٦ ـ بين موسى وفرعون	١١٧
الحوار بأسلوب آخر	١١٨
الاتهام بالسحر وإيمان السحرة	١١٨
وكانت المفاجأة	١١٩
٧ ـ عاقبة التكذيب والإستعلاء على الحق	١٢٠
آيات أخر	١٢٠
نهاية الظلم وهلاك المكذبين	١٢١
٨ ـ قوم موسى ونفسيتهم وعوامل بنائها	١٢٢
٩ ـ انحراف بني إسرائيل وتتابع الرسل إليهم	١٢٤
(١٠) عيسى عليه السلام	١٢٧
١ ـ قصة مريم وولادة عيسى عليه السلام	١٢٧
ولادة عيسىٰ عليه السلام معجزة كبرىٰ	١٢٨
عيسىٰ عليه السلام يتكلم في المهد	١٢٩

٢ ـ رسالته إلى بني إسرائيل، وكيدهم به، ونجاته بفضل الله منهم ١٣٠
المعجزات الباهرات ١٣٠
المكر السيء والجريمة النكراء ١٣١
٣ ـ القول الحق في عيسى عليه السلام وموقف الإسلام من دعاوي اليهودية والنصرانية ١٣٣
كفر النصاري وغلوهم ١٣٣
القول الحق وموقف المسلمين ١٣٤
الدروس المستفادة من قصتي موسى وعيسى عليهما السلام ١٣٥
فهرس المصادر والمراجع ١٣٧
فهرس ١٤٥